عالم بلا يهود



دراسة فى المشكلة اليهودية وكتابات ماركس وسارتر
وتشمبرلين وسيجموند فرويد ومارتن بوبر وويل ديورانت وآخرين .

دكتور/ عبد المنعم الحفنى





عالم بلا يهود

دراسة فى المشكلة اليهودية وكتابات لماركس وسارتر
وتشمبرلين وسيجموند فرويد ومارتن بوبر وويل ديورانت وآخرين .

دكتور/ عبد المنعم الحفنى



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

وبعد ... فقد كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً فنفذت الطبعة الأولى بحمد الله ، واستوجبت أهمية الكتاب والموضوع الذى يعالجه طبعة جديدة ، ومازالت الأيام تترى والبراهين تُقام على أنه لا سلام فى العالم طالما اليهودية قائمة .

وصدق ماركس اليهودي وهو يقول : إن النزعة اليهودية لو زالت عن اليهودى لما صار بهذه العدوانية التى هو عليها الآن . وصدق إذ قال إن أمريكا هى معقل اليهودية فى العالم ، لأن اليهودية هى الرأسمالية مجسّمة ميتافيزيقيًا .

دكتور

عبد المنعم الحفنى

يناير ١٩٩٧

مقدمة . . . ودراسة

فى نهاية هذا الكتاب سيجد القارئ ترجمة لمقال **لكارل ماركس** بعنوان « **المسألة اليهودية** » ولكن الكتاب فى الواقع يتضمن ترجمة لأكثر من كتاب ، فهناك ترجمة **لبرونوباور** ، وأخرى **لجان بول سارتر** ، وثالثة **لسيجموند فرويد** ، ورابعة لجذاذات عن **ويل ديورانت** ، ودراسات للفيلسوف اليهودى **مارتن بوبر** ، ومقتطفات من **كفاحى لهتلر** ، ودراسات **لإسرائيل كوهين** ، **وابن هشام** ، **وابن سعد** ، **وجورج ريترفون شوينر** ، **وكارل كروجر** ، **وجوبينو** ، **وتشمبرلين** ، **وفشته** ، **ومارتن لوثر** ، **ورينان** ، **وهرتزل** ، **وبن جوريون** ، وكلها تدور حول ما يسمى **بالمسألة اليهودية** . غير أن مقال كارل ماركس يتبقى صلب الكتاب ، والمحور الذى تدور حوله بقية الترجمات ، والتى يجمعها جميعا حول موضوعه .

ومقال ماركس ترجمة عن أصل فرنسى ، للأصل الألمانى ، الجزء الأول من الأعمال الكاملة لكارل ماركس ، عن المكتبة الفلسفية لدار نشر كوست بباريس سنة ١٩٥٢ ، ومراجعة على الترجمة الإنجليزية للنص الألمانى ، نشر المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٩ بعنوان

عالم بلا يهود A World Without Jews من ترجمة داجوبيرت رونز Dagobert Runes وهو فيلسوف صهيوني ، ومؤلفاته كثيرة في اليهوديات ، وينشر كتاب ماركس كنموذج للكتابات المعادية للسامية ، ومقدمته تطفح بالعداء لماركس ، وقد لاحظت فروقا كبيرة بين الترجمتين الفرنسية والإنجليزية ، وهناك سطور في الترجمة الفرنسية غير موجودة في الترجمة الإنجليزية ، وعند النقل إلى العربية حاولت أن أورد السطور الأزيد ، لكني كنت أتمنى لو ترجمت المقال مباشرة عن الألمانية .

* * *

– لكن لماذا كتاب ماركس ؟

لقد وجدت خيطا طويلا يشد كتابات كثيرة ، ويجمعها جميعا موضوع واحد هو : **اليهود كمشكلة** في العالم كله ، حتى ليبدو أن العالم بأسره يعاني من هذه المشكلة . وقد نعجب . لكن لماذا العجب ؟ ألسنا نعاني منهم نحن أنفسنا ؟ ألم يصبح اليهود مشكلة بالنسبة لنا نحن أيضا حتى بتنا نفكر ما الحل ، وكيف الخلاص ؟

* * *

ومن قبل ، في تاريخنا الإسلامي ، كان اليهود مشكلة وأي مشكلة ! عاني منهم الرسول كثيرا ، ونزلت فيهم وعنهم سور كثيرة ، وأنوا

المسلمين كثيراً ، وأثاروا فتنة كبرى ، وأشاعوا في ديننا ما يسميه رجال الفقه بالإسرائيليات .

* * *

لهذا كان لابد أن نحيط علما بالمشكلة اليهودية ، ونعرف تاريخها ، ونتعرف إلى رأى الآخرين فيها ، والحل الإسلامى لها .. وكل شئ عنها ؟

هذا من جهة .. لكن لماذا وجهة نظر ماركس بالذات ؟

ربما لأنه الوحيد الذى يتناولها بشكل علمي كمسألة ، والذى يعرض لجوانبها كموقف لا كتاريخ ، ويتصدى لها بالعلم لا بالتحيز . فالذى يعجبنى فى مقال ماركس منهجه الديالكيتكى ، وليس النتيجة التى يتوصل إليها ، بمعنى أنه يتناول المسألة اليهودية بالتحليل الجدلى ، كموقف متعين بالزمان والمكان اللذين تناولها فيهما ، فالنتيجة مرتبطة بزمانه ومكانه ، وليست نتيجة أزلية ، أما المنهج الجدلى فهو وسيلة علمية منطقية ، صالحة لكل زمان ومكان . وأنا أترجم ماركس لمنهجه الجدلى ، الذى إذا استخدمناه لمناقشة هذه القضية ، وأى قضية ، لتوصلنا إلى تحليلها الصحيح فى زمنها ومكانها ، كموقف .

لكنى عندما أتصدى لها ، لابد أن أحيط بجوانبها ، أى أن أدرسها فى التاريخ ، ثم أدرسها كموقف لآخرين ، وأخيرا أدرسها كموقف

يحتوينى أنا ، بمعنى أنى أتناولها تاريخيا ، ثم أتناول تحليل الآخرين لها كمواقف بالنسبة لهم ، ثم أتناولها كموقف يحتوينى كمصرى أو كعربى ويحتوى اليهود .

والواقع أنى لا أجد فترة من فترات التاريخ لم يظهر اليهود فيها كمشكلة . خذ التوراة ، وهو كتاب يضم تقارير عن فترات من التاريخ ، تبدأ من خلق آدم ، حتى قبل ظهور المسيح . والتوراة حافل بالقصص التى تظهرهم كمشكلة لغيرهم من الشعوب القديمة : المصريين ، والكنعانيين ، والفلسطينيين ، وعماليق ، والموابيين ، والبابليين ، والفرس ، والرومان . وبعض التاريخ الرومانى والمسيحى حكايات حولهم كمشكلة ، سرعان ما تنتقل لعرب الجزيرة ، وسرعان ما يظهرون أنفسهم كمشكلة للمسلمين . ويدور التاريخ دورة سريعة وتنتقل المشكلة لأوروبا وتبرز فى ألمانيا بالذات ، ثم يدور التاريخ دورة لا تكاد تذكر ، ولكنها تكفى ، ليظهروا على المسرح من جديد ، كمشكلة ولكن فى منطقة الشرق الأوسط .

وألاحظ أنهم على كل مسرح ظهروا عليه لم تجد الشعوب من حل لمشكلتهم إلا الحرب والقتال . ولقد حدث أن تصور المسلمون يوما أن بالإمكان أن يعايشوهم فى سلام فيما يشبه الآن التعايش السلمى ، فى المدينة وحول أرباضها ، وسرعان ما تبدد وهمهم ، ولم يكن هناك

من حل لمشكلتهم سوى قتالهم .

* * *

وإذا جاز لنا أن نستخدم ديالكتيك هيجل ، لقلنا : في تصوري أن القضية كانت دائماً المال وسيطرة اليهود وجشعهم والربا والخيانة ، وأن نقيض القضية هو رد فعل الشعوب ، ومركب القضية والنقيض هو حركة التاريخ المتدافعة عبر كل هذه الأزمان والأمصار . وليس قيام إسرائيل إلا من قبيل مركب القضية والنقيض ، ولكن التاريخ متحرك ، و تحكمه الصيرورة ، والمركب الجديد يتخلّق من النقيض ، والنقيض لإسرائيل تشريد الشعب الفلسطيني . ومامعنى التشريد ؟ في رأي توينبي أن الدولة عندما تقوم ، ويكون على تخومها خوارج يدقون أبوابها ويهاجمونها باستمرار ، لابد أن تنهار الأبواب ويغزوها الخوارج وتسقط الدولة . هكذا يعلمنا التاريخ ، وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية بسبب وجود الخوارج الجرمان على تخومها . ولقد قامت إسرائيل لتستوعب يهود العالم وتحل المسألة اليهودية . ولكن المسألة اليهودية لم يحلها قيام إسرائيل ، بل خلق قيام إسرائيل تناقضات داخل إسرائيل ، وخلق – **المسألة الفلسطينية** . العالم اليوم لم يعد يعرف يهود مضطهدون ، ولكن فيه يهوداً عنصريين وحركة يهودية عنصرية ، وعرباً مضطهدين وشعباً مشرداً وأراض محتلة .

ولسنا نعرف إلا القليل عن تاريخ اليهود قبل الدولة الرومانية ، ولا توجد إلا أقل الآثار التى تتناول أو تذكر شيئاً عن اليهود قبل الدولة الرومانية . ولم نعرف أنه كانت لهم دولة إلا من كتاب التوراة . والتوراة اليهودية ، أى هذه التوراة الموجودة فى أيدينا اليوم ، كتبها من يسمى عـزراً الكاهن ، الذى ورد ذكـره فى القـرآن تحت اسم **عزير** ، حيث يقـول القـرآن « **وقالت اليـهـود عـزير ابـن الله ، ذلك قـولهم بأفواهـهـم** ، يضـاهـئـون الذين كـفـروا من قـبل ، قـاتلهم الله أنّى يؤفكون » (سورة التوبة الآية ٣٠)

ويقـول اليـهـود إن عـزيراً جـمـع التـوراة بعـد مـوسى بألف عـام . والتوراة اليـهـودية مـجـمـوعـة حكايات ونواه ، هدفـهـا : **تعزيز قومية اليهود ، ونهيهم عن الاختلاط بغيرهم ، وتأكيد تفوقهم على بقية البشر .**

هذه أهداف عزرا الكاهن أو عزير ، **فالتوراة كتاب وطنى ، أو كتاب فى التربيـة الوطنية لليهود** . ونحن لا نثق بـأقـوال عزراً أو عـزير ، لأسـبـاب سنوردها فـيـمـا بـعـد ، ولا يمكن أن نعـتـبـر التوراة الحالية هى الكتاب الذى أنزل على موسى النبى ، لأن التوراة الحالية عبارة عن أسفار خمسة تنسب لموسى ، وأسفار غيرها لمرحلةٍ بعد موسى .

والأسفار التى تنسب لموسى يكثر بها الخلط التاريخى ، فهناك أحداث تشتبك بأحداث تقع بعدها بمئات السنين ، ولا ذكر للملوك بأسمائهم ، ويقال إن الإسرائيليين ظلوا بمصر ٤٠٠ سنة ، ولكن الآثار المصرية تخلو تماماً من أى ذكر لهم ، وخاصة آثار الأسرات ابتداء من الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة ، ولا نعرف عنهم شيئاً إلا ما ورد فى **لوح مرنبتاح** الشهير . وكان مرنبتاح الإبن الثالث عشر لرمسيس الثانى ، وتغنى شعراء مصر أيامه بانتصاراته ، ولأول مرة يأتى ذكر كلمة إسرائيل ، فى نص مصرى ، فى اللوح الذى اكتشف وأطلق عليه اسمه ، والذى يشيد بتخريب جيوش الملك لإسرائيل .

مع ذلك يقال إن دولتهم هذه المزعومة فى التاريخ القديم دمرت ثلاث مرات ، فى المرة الأولى على يد **سرجون الثانى ملك أشور** نحو سنة ٧٣٠ ق . م ، وفى المرة الثانية على يد ملك بابل **نبوخذ ناصر** سنة ٥٩٧ ق . م ، وفى المرة الثالثة على يد الإمبراطور الرومانى **بومباى ثم تيتوس**(١) ، وبعدها ولّوا الأدبار هربا من الرومان ، وارتحلوا شرقاً إلى الأناضول وفارس والروسيا .

ويقول **ديورانت** إنهم استبعدوا عن الوظائف فى فارس ، ولكننا نلاحظ أن الوظائف كانت محرمة على سواهم إلا طبقة النبلاء من

(١) Abbot : Israel in Egypt, p . 43 . - Baron : Social and Religious History of Jews - Will Durant : The Story of Civilization, The Age of Faith p . 34 .

الفرس ، وإذاً لم يكن هناك اضطهاد لهم ، بل إن الفرس سمحوا لهم بإقامة شعائرهم . واشتغلوا فى العراق بالتجارة ، ولكنهم قلبوا التجارة من حرفة وسيطة شريفة إلى مهنة يسودها الربا وتعرف الاحتكار ، ومن ثم جنوا الأموال الطائلة وحازوا الأملاك وتضاعف عددهم بسرعة فقد كانت قوانين فارس تبيح تعدد الزوجات ، والشريعة اليهودية تبيح تعدد الزوجات لأربع زوجات ، ومن ثم تكاثروا وهاجروا إلى سوريا ، وإلى الجنوب ، إلى شبه الجزيرة العربية ، وإلى الغرب إلى كل بلاد البحر الأبيض . وشغلوا مناطق بأكملها مثل خيبر ، وكان عددهم في يثرب قدر عدد العرب ، وبشّروا باليهودية ، وعبروا إلى الحبشة وتزايدوا حتى قيل إنهم بلغوا سنة ٣١٥ م نصف عدد سكان الحبشة كلها ، وتميزت طريقتهم في الحياة ، فهم لا يشترون ، كما يأمرهم التالمود ، إلا من اليهود ، ولا يقبلون على لحم لدى جزار غير يهودى ، ويقرضون المال بالربا لغير اليهود ، وسكنوا أحياء خاصة بهم أطلق عليها اسم **الجيتو Ghetto** ، وكانت أول تسمية لها فى إيطاليا ، لأنهم كثروا فى إيطاليا حيث كان المال والتجارة فى مدنها القديمة ، والجيتو هو حى اليهود . واتهمهم البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٧ م بخطف أطفال المسيحيين وذبحهم كمايدعوهم التالمود . وكانت أكبر مؤامراتهم على المسيح . وانقسم العالم إلى مسيحيين ويهود ، ورأى اليهود فى المسيحيين أكبر أعدائهم ، وكان

المسيح رمزهم فأنكروا وجوده إطلاقا ، وسيطروا على وسائل النشر ، وشجعوا كل كتاب ينقض المسيحية ، ولعل قضية نيتشه معروفة ، ولم يحدث أن نشرت دار نشر كتب نيتشة أو ترجمتها إلا وقام بها اليهود . وكان نيتشه عدو المسيحية رقم ٢ بعد اليهود ، حتى اتخذه النازى رمزاً لعدائهم للمسيحية ، واتخذوا الصليب المعقوف رمزاً لدولتهم متناقضاً مع الصليب .

ومن الغريب أن يؤله اليهود والنازى نيتشه ، وكان الاثنان يعاديان المسيحية فاتخذاه حصاناً لهما ، وإن كان لكلٍ أسبابه . وكره المسيحيون اليهود لعداء اليهود للمسيحية والمسيحيين ، وكرهت الشعوب اليهود لأنهم ما كانوا ينتمون إليها فانتماؤهم للمال ، وثار الناس في إنجلترا على اليهود سنة ١٢٥٧ ، وكانت ثورة من لا يملكون ضد من يملكون ، أو ثورة المستغَلّين ضد المستغِلّين ، واجتاحت الثورة عليهم مدن لندن وكانتربرى ونورثامبتون ومانشستر وورستر ولينكولن وكامبريدج ، وكلها مدن تجارية وصناعية حيث تتمثل سيطرة اليهود على أرزاق المجتمع الإنجليزى . ونهب المتظاهرون بيوت اليهود ودمروا وأحرقوا حجج الملكية والكمبيالات، الأمر الذى يدلنا على جوهر التمرد ضد اليهود، وأنه تمرد ضد الاستغلال والربا والمتاجرة بالمال .

وهل هناك أروع من تصوير شكسبير لوضعية اليهودى وعدوانيته

الاستغلالية فى « **تاجرالبندقية** »(١) ، أو من تصوير مارلو المعجز فى « **يهودى مالطا** »(٢) ، أو من تصوير ديكنز المبدع الفنان فى « **أوليفر تويست** » ، ولعل ديكنز دونهم جميعاً يبلغ حد الروعة وهو يرسم فى تفاصيل دقيقة انحطاط الروح اليهودية وماديتها المسرفة وابتعادها الموغل عن كل القيم الأخلاقية السائدة ، واستغلالها البشع للعمال وللكادحين ، و حتى الأطفال ، فالأدب كشفهم والمسرح عرّاهم ، وبالأدب والمسرح بدأت مرحلة وعى الشعوب وتنبه الغافلين .

وقابل اليهود ذلك بمحاولة إخفاء معالم اليهودى ، ليضيع فى الزحام ، وبدأت حركة علمانية يهودية تطالب اليهود بالتخلى عن القفطان والطاقية اليهوديتين ، وقص اللحية ، والتزيى بالزى المدنى للناس ، والتسمية بأسمائهم ، وترك الجيتو ، ولكنهم كانوا يُعرَفون رغم ذلك ، لأنهم وإن تخلّوا عن المظهر إلا أنهم لم يتخلوا عن المخبر ، عن السلوك ، فكانوا يعرفون بالسلوك ، ومن ثم بدأوا يفكرون بطريقة أخرى .

وانتشرت بين اليهود الدعوة إلى التخلى عن الدين اليهودى واعتناق المسيحية وأديان الشعوب التى يحيون بينها ، ومن ذلك أن

(١) The Merchant of Venice .

(٢) Marlowe : The Jew of Malta

ترجمة عبد المنعم الحفنى : منشورات البرنامج الثانى بالإذاعة المصرية سنة ١٩٦٢

عبد الله بن سبأ صاحب الفتنة الكبرى فى الإسلام ، كان يهودياً اعتنق الإسلام ، وظل مخلصاً لدينه الأصلى يبث رموزه وأصوله فى الإسلام ، حتى أن علىّ بن أبى طالب أحلّ دمه وتبرأ مما يدعو إليه المسلمون . ومن ذلك أيضاً أن والد كارل ماركس اعتنق المسيحية وتزوج مسيحية ليحل أزمته نهائياً مع المجتمع الألمانى المتدين . ومنه أيضاً أن « برونو باور » دعا اليهود الألمان للتخلى عن يهوديتهم باعتبارها النواة التى يتخلق حولها الأسلوب اليهودى فى الحياة . ولكن اليهود بدأت تقوى لديهم ، أقول تقوى ولا أقول تظهر فكرة العودة لفلسطين حيث كانت لهم ، فيما يزعمون ، دو لة فى يوم من الأيام ، ليعيشوا هناك بأسلوبهم ، داخل حدود دولتهم المزعومة ، والتى يدّعون أن الله وعدهم بأن تكون حدودها من الفرات إلى النيل ، وهو ما عرف فيما بعد باسم **الحل الصهيونى** .

* * *

ولا نعرف الأصل التاريخى لليهود . من هم هؤلاء اليهود ؟ أية سلالة أو جنس يمثلون ؟ من أين قدموا ؟ لا يوجد شئ علمى عنهم . كل مانعرفه دينى . واليهود من الأمم البائدة . بل إنه لا دليل على قيام دولة لهم ، ولا يتحدث عن هذه الدولة المزعومة إلا كتابهم التوراة . وليست التوارة هى التوراة التى يتحدث عنها القرآن حينما يقول « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين

هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (سورة المائدة الآية ٤٤) . وأما الزبور فيرد ذكره فى القرآن حيث يقول « وآتينا داود زبورا » (سورة الإسراء الآية ٥٥) . ويقول اليهود إن كتاب داود هو المزامير ، وأن الزبور هو المزامير ، ولكن المزامير لا يمكن أن تكون زبور داود ، فالزبور كتاب الله ، وأما المزامير فهى أناشيد ، بعضها مسروق من أناشيد أخناتون ، وبعضها يطفح بالأوصاف الجنسية الفاضحة التى تفصح عن هوس جنسى هو داء يصيب الإنسان ولا يمكن أن يكون مصدره الله . وإذا كان عزراً أو عزير هو الذى دوّن التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، بعد ألف عام من نزولها ، فليس من المعقول ألا يتناولها التغيير وخاصة بعد كل هذا التاريخ المخزى المذل ؟ ولا يعقل أن يكون كتاب مثل نشيد الأنشاد ، وهو كتاب جنسى فاضح ، سفرا من أسفار التوراة منزّلا من عند الله .

وينفعل الكاتب الإنجليزى هـ . ج ويلز بالتوراة فيقول بغضب إن أسفار حزقيال ودانيال وإستر وهوشع ممن يعتبرهم اليهود أنبياء ، ليست أسفاراً دينية ، ولكنها أسفاراً وطنية ، وليس حزقيال ودانيال وغيرهما أنبياء بالمعنى اللاحق ، ولكنهم ساسة ووطنيون ، ولذلك لا يمكن أن نعتمد على التوراة كمصدر تاريخى علمى لأصل اليهود الإثنولوجى ، ولكنه يصلح تفسيراً لغلّوهم السامى ولسعيهم

لإنشاء وطن قومي ، و ينبغي أن نفهم من أول الأمر أنه لا يوجد في التاريخ ما يشهد على صدق التوراة اليهودية ، وما يقوم دليلا على أن أحداثها قد وقعت في يوم من الأيام .

وتزعم التوراة : أن اليهود كانوا إثنتا عشرة عشيرة خرجت من صلب النبي يعقوب ، فأولاد يعقوب إثنا عشر ولدا أو سبطا ، ومن هؤلاء خرج الشعب اليهودي .

كما تزعم التوراة : أن اليهود يبدأ تاريخهم بخروجهم من مصر ، وتصور موسى بطلا قومياً ومؤسس دولة ، وتقول إنهم حاربوا القبائل التي تسكن المنطقة من سيناء مصر حتى جبل حرمون في سوريا ، ومن الأردن حتى سواحل فينيقيا ، وأن يشوع بن نون خليفة موسى عزز فتوحاتهم وأرسى دعائم الدولة .

وتزعم التوراة أن الله قد وعد اليهود في سفر التكوين أن يعطيهم الأرض من النيل إلى الفرات ، حيث يخاطب الرب إبراهيم فيقول : لنسلك أعطي هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ..(سفر التكوين الإصحاح الخامس ص ٢٣) . واتخذت الحركة الصهيونية هذه العبارة أساساً لحدود دولة إسرائيل الحديثة ، ونقشتها على أبواب الكنيست (برلمان إسرائيل) . وهذا هو الأساس الديني الذي تستند إليه الحركة الصهيونية ، وهي كأي حركة عنصرية تستند

إلى أصول غيبية ، فحيث ينعدم التفكير العلمى ويقصر المنطق يتقدم التفسير الغيبى لما هو ليس بمعقول ، لكى يقوى به عزم الأتباع ، وتؤصل بواسطته الرغبة والإرادة فى إنشاء وطن قومى . ولسنا نجد شبيها لذلك إلا فى **الحركة الفاشية أو النازية** ، عندما تستند على دعوى بالتفوق العنصرى ، أو بالاختيار من لدن اللّه ، أو بحمل أعباء رسالة تتفرد بها عن بقية شعوب العالم .

❄ ❄ ❄

فلماذا سُمّى اليهود بالساميين !

السامية نسبة إلى سام . وسام كما تدّعى التوراة هو الابن الأكبر لنوح ، وكان سام أول إنسان يباركه اللّه بعد طرد آدم من الجنة . وتدعى التوراة أن اللّه اختاره دون إخوته لهذه البركة ، **وكانت هذه الفرية أول فرية عنصرية** ، وتروى لها التوراة قصة وأى قصة !

تروى أن نوحاً كان له ثلاثة أولاد ، هم سام وحام ويافث ، فلما انتهى الطوفان واستقر نوح على اليابسة « ابتدأ فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فأبصر حام ، أبو كنعان ، عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا ، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما . فلما

استيقظ نوح من الخمر علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته . وقال مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبداً لهم . ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم » (سفر التكوين ص ١٥) .

ويتحدث سفر التكوين عن الكنعانيين وهو بمعرض التحدث عن أصل العالم ، مع أن الكنعانيين لم يكونوا قد ظهروا فى التاريخ بعد ، ولكن ما العمل والتوراة كتبها الحاخامات بعد ألف سنة من زمن موسى ، وفى خلال هذه الألف سنة عرف اليهود المعارك والحروب مع الكنعانيين فكرهوهم ولم يجدوا بأساً أن ينفثوا عن كراهيتهم للكنعانيين منذ أول الخليقة ، وأن يستعلوا عليهم ، ناسبين هذا الاستعلاء لله عز وجل ولنوح عليه السلام ! ويدّعى اليهود أن الأمم جميعها خرجت من حام ويافث . أى خلط علمى !! وأن اليهود من نسل سام ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالساميين ، وجاء تسمية العداء لهم بالعداء للسامية .

وتزعم التوراة أن سام بن نوح أنجب من الأحفاد يقطان ، وأن يقطان أبو العرب ، وأنجب إبرام أو إبراهيم ، وأن إبراهيم أنجب إسماعيل ثم إسحق ، وأن الله افتدى إسحق بكبش سمين ، أى أنها تزعم أن الفداء كان لإسحق الأصغر ، لأن أم إسحق كانت عبرانية لكن أم إسماعيل كانت من الأمم . وتقع التوراة فى التناقض ، فهى إذ

تدعي أن اللّه قال لإبراهيم إذهب من أرضك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأبارك وأعظّم اسمك ، وتكون بركة وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض (سفر التكوين ص ٢٣) ، مع ذلك تعود وتقصر البركة على بني إسرائيل لا غير ، دون العرب أبناء إسماعيل الذين قُصِدوا بالبركة وبالبشارة بأنهم أمة عظيمة !!

وينجب إسحق يعقوب ، وتدعي التوراة أن اللّه يخاطبه فيقول « إسمك يعقوب ، ولا يُدعَى أسمك فيما بعد يعقوب ، بل يكون اسمك إسرائيل ، فدعي اسمه إسرائيل » (سفر التكوين ص ٥٨) .

وإسرائيل إسم أعجمي عبري مركب من كلمتين إسرى بمعنى عبد ، وئيل بمعنى اللّه ، فتكون ترجمته عبد اللّه . ومن هنا يأتي اسمهم بالإسرائيليين أي أبناء إسرائيل ، وتدّعي التوراة أن إسرائيل أنجب أثنى عشر سبطا ، وأن يشوع بن نون قسّم الأرض عليهم ، وكان منهم من يُدعَى يهودا ، ومن أسباطه خرج من أقام مملكة يهودا التي سيطرت على كل شعب إسرائيل ، ومن ثم أصبح سكانها يُدْعَون اليهود ، مثلما يسمى سكان مصر بالمصريين . **وهذا هو أصل تسميتهم باليهود** .



أما إسمهم **العبرانيون** ، فهو من فعل عَبَّر العبرى والعربى . ويدّعِي سفر يشوع « أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا موسى عبدى قد مات ، فالآن قم " **اعبر** " هذا الأردن ، أنت وكل هذا الشعب ، إلى الأرض التى أنا معطيها لهم ... وقال لهم يشوع " **اعبروا** " أمام تابوت الرب ..لكي تكون هذه علامة في وسطكم ، إذا سأل غداً بنوكم مالكم وهذه الحجارة ، تقولون لهم إن مياه الأردن قد انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند " **عبوره** " الأردن ... على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب إلهكم قد يبّس مياه الأردن من أمامكم ، حتى " **عبرتم** " ، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذى يبّسه من أمامنا حتى " **عبرنا** " » (سفر يشوع الإصحاح الرابع ص ٣٤٢) .

فالأصل اللغوى للعبرانيين فعل " **عبر** " ، وهو فى اللغة العربية كما فى اللغة العبرية . والعبرية لغة **العبرانيين** ، وهذا هو **العبور** أية اليهود التى تميزهم على الأمم ، فالرب فى زعمهم قد أمكنهم من **العبور** مرتين ، فى مصر عبر بحر سوف ، وفى الأردن عبر نهره ، ويقال إن هناك مرة ثالثة فى العراق حيث عبره إبراهيم إلى فلسطين .

ويرى مارتن بوبر[1] ، الفليسوف اليهودى ، أن الأصل اللغوى لكلمة " عبرانى " هو كلمة عابيرو habiru التي صارت فيما بعد hebrew ، وهابيرو أو عابيرو معناها الشخص الرحّالة المتجول غير المستقر . وقبائل إسرائيل كانت قبائل رحّالة ، وكان إبراهيم دائم التنقل ، وكذلك إسحق ويعقوب ، وقد ارتحل يعقوب وبنوه إلى مصر . ويرى بوبر أن الارتحال يخلق المقاتل ، وأن الإسرائيليين كانوا مقاتلين ، ويضرب المثل بسفر التثنية حيث يقول الرب ، كما تزعم التوراة ، « أنتم أولاد الرب إلهكم ، لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وقد اختارك الرب كي تكون له شعباً خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (الإصحاح الرابع عشر) !!

هل هذا معقول ؟ أنا لا أصدق ما أقرأ ، ولا أصدق أن هذا البوبر العنصرى الغيبى المستشهد بكلام حبر كاهن ، حاول أن يكون من

---

(١) مارتن بوبر فليسوف يهودى ولد وعاش فى ألمانيا ، ثم فر أمام النازى إلى بريطانيا ، فالولايات المتحدة واستقر أخيرا فى إسرائيل يدرّس فى الجامعة العبرية بالقدس ، وهو من المؤسسين للحركة الصهيونية ، وكان من أنصار وايزمن ضد هرتزل ، ومات فى إسرائيل سنة ١٩٦٥ ويشتهر بوبر بكتاباته فى التربية اليهودية ، وحاولت دور النشر جعله من المفكرين الوجوديين المحدثين لأنه القائل أن وجود الأنا يستتبع وجود الأنت ، فإذا اعترف الأنا بالأنت قام بين الاثنين حوار هو روح الديموقراطية دليل المساواة . (الحفنى) .

كبار المفكرين والفلاسفة وأن يتبوأ مكاناً فى الفكر الإنسانى المعاصر إلى جانب سارتر وهايدجر وكيركجورد !!!

❄ ❄ ❄

إننا ننحنى احتراماً لأسماء كبيرة في الأدب والفلسفة ، لأن أصحابها قدّوا بعقولهم طريقاً لهم فى جبال الفكر وكانت لهم نظرات وأفكار . هؤلاء الناس يصيرون مرجعيين ، أى أننا نرجع إليهم ونستشهد بأقوالهم . لكن ماذا لو كان الواحد من هؤلاء مخطئاً ؟ ماذا لو كان هو نفسه ضحية الدعاية ؟ لا أدرى ، وإنما يجب ونحن نقرأ أن نحاذر ، وأن نعرف أولا لمن نقرأ ، ونلم بأطراف حياة الكاتب ، ونعرف شيئاً عن دار النشر التى تنشر له ... أقول إن هذا ضرورى دائما .

وويل ديورانت [1] من هؤلاء المرجعيين . وهو فليسوف و مؤرخ فلسفة ، كتب **تاريخ الحضارة** فى سبعة مجلدات ، وأفرد لليهود جزءاً لا يتناسب مع إسهامهم الحضارى ، لأن ما يكتب عن شعب بالمقارنة لما يكتب عن شعب آخر ينبغى أن يتناسب مع إسهام الشعبين

---

(١) ويل ديورانت : ولد عام ١٨٨٥ من أبوين كنديين ، وتلقى العلم فى أمريكا ، وعاش بها ، ودرس على يد مورجان وديوى وحصل على الدكتوراه عام ١٩١٧ واشتغل بالتدريس وطاف العالم وكتب قصة الفلسفة ، وقصة الحضارة . (الحفنى) .

فى الحضارة . فهل من المعقول أن يكون إسهام اليهود أكبر من إسهام العرب ؟ شئ غريب هذا الذى أقرأه فى موسوعته ، والأغرب أنه يستشهد بمراجع أصحابها يهود ، كأنه يروى حكاية ويستشهد بأن قائلها فلان ، لكن بمن يستشهد قائلها ؟ مع ذلك فديورانت تُرجم إلى العربية ، وأشرفت جامعة الدول العربية على ترجمته ، ولم ينبر المترجم للرد على ديورانت !

ويتساءل ديورانت : لماذا العداء بين اليهود والشعوب ؟

ويقول « إن المصادر الرئيسية للعداء كانت دائماً مصادر اقتصادية [١] ، ولكن الخلافات الدينية بين اليهود وغير اليهود زادت حدة الخلافات الاقتصادية ، وجعلتها مجرد غطاء لها ، والمسلمون لم يكرهوا اليهود فى يثرب إلا عندما شككوا فى نبوة محمد ، والمسيحيون يرددون كل أحد قصة صلب اليهود للمسيح وهومنهم » .

وتقول التوراة : إن العداء لليهود كان فى مصر القديمة لأن اليهود كانوا أعظم من المصريين . « هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا . هلم نحتال لهم لئلا ينمو ، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون فى الأرض » (سفر الخروج الإصحاح الأول) .

قول غريب عزيزى القارئ ! فالتاريخ المصرى لم يعرف اليهود كشعب

---

(١) Vol 4 : The Age of Faith, P. 385 .

أعظم وأكثر من المصريين ، وإنما عرفهم المصريون عبيداً أرقاء ، وتحدثنا لوحة « مرنتباح » أن المصريين قضوا على الإسرائيلين . هذا هو كل ما ورد عن الإسرائيلين في الآثار المصرية . ذكْر عابر ولا شئ غير ذلك .

❋ ❋ ❋

ويصف القرآن النبى **إبراهيم** أعظم وصف ، فهو فيه باحث عن الحقيقة بالمصطلح الفلسفى . وهو يبدأ « مفكراً » مادياً وينتهى إلى التجريد . وتنسجم كل القصص عنه فى القرآن لتصوغه شخصية متكاملة يطحنها التفكير الدينى . ولكن التوراة على عكس تصوير القرآن تجعله رجل دولة ، وتشكّل الأنبياء من **إسحق ويعقوب ويوسف** ، بل **وموسى** ، كرجال دولة وأبطال قوميين .

وكلمة **نبى** بالعبرية تعنى شيئاً مختلفاً عما تعنيه الكلمة العربية ، فالنبى بالعربية تعنى الإنسان الكامل ، أو ما نسميه في علم التربية « القدوة » ، ولكن النبى بالعبرية تعنى شخصاً قد تغلب عليه الرذائل ، ولكن فضيلته الوحيدة أنه يقدم لقومه « خدمة » ، فالنبوة عند الإسرائيليين تعنى : الشعور بالقومية والانتماء القومى . هكذا كان داود وسليمان وكل الأنبياء . وهذه الحقيقة عبّر عنها هـ . ج . **ويلز** فقال : إن أنبياء إسرائيل كانوا ساسة وليسوا أنبياء بمعنى أصحاب رسالات وبشارات سماوية لخلاص الإنسان بعامة . وأسفار الأنبياء

أسفار رجال دولة يحتالون لخلاص إسرائيل وإعادة بنائها وبناء الهيكل .

وحول هذه المعنى نفسه اختلف العرب واليهود فى يثرب ، فالمفهوم الإسلامى للنبوة يصطدم بشكل حاد مع المفهوم المادى لها فى اليهودية . وثمة هذا السؤال : **لماذا رفض اليهود المسيح ؟** والجواب : لأنه خرج برسالته إلى الغوييم أى عامة الأمم . وفهم شاول الملقّب ببولس الرسول هذا القصور فى اليهودية ، فخرج برسالة المسيح إلى الأمم . وجاء محمد ليبشر الأمم كافة . واليهود ترفض الغوييم أو الأمم ، وترفض هذا المعنى للنبوة .

واليهودى بمصطلح التحليل النفسى إنسان متمركز حول ذاته ، يرى أن الله لم يخلق سواه فى الدنيا ، وأنه مِلح الأرض ، وأن الله أسلم له الأمم عبيداً ، ولذلك يتهافت منطق **مارتن بوبر** ويتناقض مع التوراة حينما يقول بفلسفة الأنا - والأنت ، فالأنا والأنت لا تعرف تفوق أيهما ، ولكنها علاقة سيكولوجية مستقرة المجال ، أى متعادلة الأقطاب ، الأمر المتناقض مع أقوال التوراة عن اليهودى .

ويصف ديجول اليهود (خطاب ٢٧ / ١١ / ١٩٦٧) فيقول « لقد دللوا على أنهم كانوا دائماً طبقة تريد السيطرة ، وتريد أن تظهر بوصفها الطبقة المختارة . إن إسرائيل تريد التوسع بالحرب » . إذن

هذه فلسفة لا أنا وأنت . هذه فلسفة أنا فقط . فلسفة التمركز حول الذات . فلسفة أنا غير متطور قد توقف نموه وثبت ، فاليهودى فردى صاحب اتجاهات عملية ، وهذه الاتجاهات والميول المادية العملية هى التى يبرزها كارل ماركس فى رؤياه عن اليهودى .

ويشتهر اليهود عبر التاريخ بأنهم أهل مكر وخداع ، وتتكرر حكاية وعد بلفور عبر كل تاريخهم ، فيروى أنهم احتالوا على كورش وساعدوه على بابل مقابل أن يساعدهم فيعودوا إلى أورشليم ، وتروى التوراة أن كورش أعطى عزرا « خطاب سلطة ، وأعطاه فضة وذهباً تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذى فى أورشليم مسكنه » (سفر عزرا الإصحاح السابع) .

وكأن ما حدث بالأمس البعيد بين عزرا وكورش ، هو ما حدث بالأمس القريب بين وايزمن وبلفور ، وبين إينشتين وترومان : فلقد ساعد اليهود الحلفاء على ألمانيا ، فوطّن الإنجليز اليهود فى فلسطين ؛ وساعد اليهود الأمريكيين على المحور ، فكان ترومان أول المعترفين بدولتهم .

وسرق اليهود أسرار القنبلة الذرية ، محتالين لدخول فلسطين ، وكان أوتوهان Otto Hahn قد توصل إلى شطر الذرة فى معهد

القيصر فيلهلم في برلين ، وكانت ليز ميتز مساعدته ، ولم يكن أحد يعرف أنها يهودية وأنها جاسوسة للحلفاء على أهم معامل النازى إطلاقاً ، وفى اليوم الذى توصل فيه هان إلى اكتشافه سرقت مساعدته اليهودية ميتز كل أوراقه وفرّت إلى السويد ، ثم إلى الولايات المتحدة . (**كتاب ألبرت إينشتين لمؤلفه أرثر بيكار ص ١٢٠ طبعة Bard**) .

وكان سعى وايزمن للحصول على الوعد المذكور مقابل التجسس على الألمان ، واستحضار أحد المركبات الكيماوية اللازمة للحلفاء ، ومقابل سعى إينشتين ومجموعته للحصول على أسرار الذرة مقابل دعم إسرائيل والاعتراف بها .

❄ ❄ ❄

ويصك اليهودى مصطلح « **المواطن العالمى** » ، لأنه لا ينتمى إلى وطن ، ولأنه تاجر، والتجارة وسيلة عالمية لا تعرف الوطنية ولا الحدود . ولكى يظل اليهودى تاجراً صاغ مصطلح المواطن العالمى ، وليدعم هذا المفهوم امتهن الفلسفة ، وعن طريق التجارة فى وسائل النشر والإعلام نشر مفاهيمه التى تبدو تحريرية ليبرالية ، ولكنها فى الواقع مفاهيم عملية هدفها : دعمه كتاجر ، والتجارة سيطرة اقتصادية : وتقتضى السيطرة على التطورات الاجتماعية والسياسة . وإذن ليس

بمستغرب أن يكون أصحاب الدعوة لما يسمى بالحكومة العالمية " كلهم يهودا .

واليهودى التاجر هو الذى قال فى **التلمود** ، كتاب اليهود الثانى :
« تاجر بمائة جنيه تأكل اللحم وتشرب الخمر . ضع المبلغ فى الزراعة تجنى على الأكثر الخبز والملح »
(Rapport,S:Tales and Maxims from the Talmud ص١٤٧) .

* * *

ويقول **تولستوى** [(١)] روائى روسيا الأكبر : إن اليهود يمتلكون العالم عن طريق التجارة والاقتصاد .

ويقول **بوبر** : إن اليهودى الجائل هو معنى كلمة عبرى .

ويقول **ديورانت** : إن يهودى سفر التكوين الجائل هو نفسه يهودى اليوم الجائل ، وأن اليهود بعد ما كدّسوا المال من التجارة ، تاجروا بالمال واحترفوا استبدال العملات والإقراض بالربا . وثار

---

(١) ليوتولستوى Tolstoi (١٨٢٨ - ١٩١٠) بدأ حياته عربيداً وانتهى زاهداً صوفياً ، دعا إلى الاشتراكية ولكنها اشتراكية مسيحية ، وهو مؤلف الإخوة كرامازوف والبعث والحرب والسلام وغيرها من أمهات الروايات العالمية . (الحفنى)

المصلحون على سيطرة اليهود على الاقتصاد ، وعلى سوق المال ، وفرض **هنرى الثانى** ضريبة على المرابين المستغلين بشكل عام ، ودفع اليهود نصف مجموع ماجُمِع ، أى أن نصف المرابين فى انجلترا كانوا يهوداً ، أو أن نصف المال الموظف فى الربا كان يهودياً. واضطر الملك **جون** تحت إلحاح المصلحين إلى سجن كل يهود انجلترا ، حتى النساء والأطفال ، واستولى على أموالهم فبلغت ٦٦,٠٠٠ مارك . وصادر هنرى الثالث ثلث أموال اليهود ، لأن أرباح الربا كانت الثلث ، فصادر ما أخذوه من الشعب الإنجليزى . وبعد سنتين استولى منهم على ٢٠,٠٠٠ مارك من الفضة ، ثم على ٦٠,٠٠٠ سنة ١٢٤٤ ، وهو ما يوازى كل دخل انجلترا ، وكان يرى أنه بين الحين والحين ينبغى " **فصد** " اليهود واستخراج ما نهبوه من الشعب البريطانى ، **وكان ما ينهبونه يوازى كل سنتين دخل مملكته كلها .**

ولم تكن اليهودية لتعنى فى أية لغة سوى : تجميع المال . وظل أحبارهم يلقون على مسامعهم فى صلواتهم ثلاث مرات فى اليوم ، وبعد كل طعام، وفى أيام السبت والأعياد والصيام: «إلى العام القادم فى أورشليم » (Israel Cohen : A History of Zionism; P.13;) وكوهين مؤلف هذا الكتاب من مؤسسى الصهيونية ، واشترك فى أول

مؤتمر لها في مارس سنة ١٨٩٨ ، وعين بسكرتارية المكتب المركزى للمنظمة الصهيونية العالمية ثم انتخب لمنصب السكرتير العام للمنظمة) .

* * *

المسألة اليهودية عند العرب

أصل العرب

الأصول العنصرية للأمم مجهولة . ولم يعرف بعد أن أمة من الأمم جاءت من نسل رجل واحد . وعندما يقال مثلا ، إن الإسرائيليين من نسل سيدنا إبراهيم ، فهو قول فيه مبالغة كثيرة ، ولا يوجد ما يؤيده تاريخيا . وقارئ التوراة يجد أنها تتحدث عن العالم ، وكأنه منطقة الشرق الأوسط التي تدور كالحلقة بصحراء سيناء ، فالعالم كله هو هذه المنطقة ، وكأن الله لم يخلق أقواما ومناطق أخرى ، وكأن الأرض وما حوت ، والسماء والشمس ، كل ذلك لخدمة الإنسان الذى يسكن هذه المنطقة ، وبالذات الإنسان الإسرائيلي .

وهناك تفسيرات كثيرة لحركة التاريخ . ولكننا عندما نقول إن العالم هو الشرق الأوسط ، وأن سكانه هم الإسرائيليون وحدهم ، وأن أبا الإسرائيليين هو إبراهيم ، نكون قد قدمنا : ما يقال له

بالتفسير الديني لحركة التاريخ ، ونحن هنا نفسر حركة التاريخ بما هو مدون في التوراة ، وفي التوراة وحدها ، أي أنه :

لا تفسير لحركة التاريخ إلا التفسير الصهيوني !!

والكتب والنظريات التي تناولت الأجناس كثيرة ، ولكن القليل منها هو الذي يستمد آراءه من البحوث العلمية ، ولقد أسهمت البحوث الاشتراكية العلمية أخيرا في هذا المجال ، بنظريات محايدة فيها الكثير من المنطق والبعد عن الصلف العنصري (١) .

وينعقد الإجماع على أن الأصول السلالية التاريخية لأمة من الأمم أمر لا يمكن معرفته ، وكل الذي نعلمه أنه كانت هناك موجات هجرة من مكان إلى مكان ، وأن العالم بأسره تتميز فيه **ثلاثة أجناس : هي الجنس المغولي ، والجنس الأوروبي ، والجنس الزنجي** . وقد تجتمع في أمة من الأمم هذه الأجناس جميعها ، كما قد تجتمع في أفرادها صفات جنسين أو أكثر من هذه الأجناس ، والعبرة كما قلنا بعملية الهجرة المستمرة والغزوات والفتوحات التي تسود العالم وخاصة القديم .

---

(١) مثل كتاب The Races of Mantkind by Professor M . Nesturkh .

ومع ذلك فإن التفسير الديني للتاريخ ، يجد أذناً صاغية له بين بعض الناس ، ومن ثم نجد من يقول ، مثل ابن هشام في سيرته : أن العرب كلها من نسل إسماعيل وقحطان ، وهو يقصد سيدنا إسماعيل ، وكأن الجزيرة العربية قبل مجئ سيدنا إبراهيم وزوجته هاجر وطفلهما إسماعيل ، كانت خالية تماما من السكان .

ونجد ابن هشام يقول بعد ذلك مصححا : إن بعض أهل اليمن يقول ، قحطان من ولد إسماعيل ، وأن إسماعيل أبو العرب كلها[1] .

ويقول ابن هشام : إن إسماعيل ولد إبراهيم (يقصد سيدنا إبراهيم) من نسل سام بن نوح . وهو يرجع أصل النبي محمد إلى سيدنا إسماعيل وسيدنا إبراهيم .

ويستغل الإسرائيليون أمثال هذه النظرية في القول بأنهم والعرب أبناء عمومة ، فالإسرائيليون أولاد إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم ، والعرب أولاد إسماعيل بن إبراهيم ، فهم جميعا من صلب سيدنا إبراهيم ... بن سام ، وأن الاثنين ساميان . وبالطبع ليس هناك ما يؤكد هذا التفسير الديني للحركة التاريخية في الشرق الأوسط

---

(١) العرب واليهود في العصر الإسلامي : الدكتور الخربوطلي ص ١٤ .

سواء فى مدلولها السلالى ، أو فيما هو أكثر من ذلك .

* * *

اليهود
فى بلاد العرب

وعلى كل حال ، فلو كانت هذه النظرية صحيحة ، لما كان هناك تعارض دينى بين العرب واليهود فى وقت البعثة المحمدية ، لأنه بين حياة النبى محمد ، وبين حياة النبى إسماعيل، حسب قول ابن هشام ، الذى يستقيه من الكتب الدينيه - وفى الغالب أنها كتب تستقى من التوراة اليهودية - رغم أن كتبتها من المسلمين ، تسعة وعشرون جيلا ، أى نحو ٥٨٠ سنة ، ولا نحسب أن هذه السنين يمكن أن تغير دين إسماعيل وأبيه إبراهيم فى شبه الجزيرة العربية إلى ما كان عليه دين العرب وقت البعثة المحمدية من وثنية مطلقة .

ولقد انطلق اليهود بعد تدمير الهيكل فى أورشليم إلى جهات متفرقة ، ومنها شبه الجزيرة العربية ، وكان ذلك بعد سنة سبعين ميلادية ، واستوطنوا اليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية ، واعتنق ملكها أسعد ابن كرب (٣٨٥ - ٤٢٠ م) اليهودية ، ودعا أهل اليمن إلى اعتناقها . ولكن نجران اعتنقت المسيحيةحوالى سنة ٥٠٠م ، وبدأت

اليهودية والمسيحية تتصارعان على السلطة في شبه الجزيرة العربية ، وتولى يوسف ذو نواس أمر نجران ، وكان يهوديا متعصبا فقتل المسيحين وأحرقهم بالنار ، وصوّر القرآن هذا الحدث فقال : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود [1] »

وفي الحجاز ، احتل اليهود أخصب الأراضى ، وخاصة في يثرب وخيبر ، وتحدثوا العربية وتسموا بأسماء عربية ، وظهر منهم شعراء عرب مثل **السموءل بن عاديا** ، **وكعب بن الأشرف** .

واشتهرت منهم قبائل ثلاث ، عرفت بعدائها للنبي والمسلمين وهي : **بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير** . وهؤلاء هادنوا قبيلتى الأوس والخزرج العربيتين ، ثم انقلبوا عليهما وحرّضوا الأوس علي الخزرج ، ثم تصالح الأوس والخزرج ، وفي هذا الوقت هاجر الرسول إلى يثرب .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة البروج الآية (٤ – ٧)

ظهور المسألة اليهودية

وضع اليهود نصب أعينهم ، كمجموعة متحدة المصلحة ، أن يسيطروا على أخصب أراضى يثرب ، وينشروا شبكتهم التجارية على الجزيرة العربية ، وكانت حنكتهم التجارية تتحدى عظمة قريش التجارية ، ومن ثم كانت أمانى اليهود أن تتحول أنظار العرب عن مكة التى تستقطبهم بكعبتها ، إلى يثرب مدينتهم. وكان اليهود يتيهون على قريش دينيا ، فقد كانت قريش عبدة أصنام ، أما اليهود فكانوا موّحدين .

وعندما دخلت المسيحية الجزيرة العربية هددت سيطرة وتفوق اليهود الدينى ، وبدأ نزاع مرير قتّال بين الديانتين ، ثم ظهر الإسلام فتصدت له الديانتان معا ، حتى أنه لشدة مقاومتهما للإسلام وللمسلمين ، نزل قول الله « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »[1] .

وتصدى اليهود للدعوة ، اتهموا الإسلام بأنه مأخوذ ، نصاً وروحا ، من اليهودية[2] ، وأن الشريعة المحمدية هى الشريعة

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠ .

(٢) أنظر كتاب موسى والتوحيد لسيجموند فرويد ، ترجمة الدكتور عبد المنعم الحفنى

الموسوية ، ونزلت الآية « سيقول السفهاء من الناس ، ماولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء علي النـاس »[1] ، ومعنى « **أمة وسطا** » أمة معتدلة ، لا تنكر الأنبياء ، ولا شريعة موسى ولا عيسى ، حيث يقول القرآن « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »[2] .

وقابل اليهود هذا الدين بالسخرية ، وبالوقيعة بين المهاجرين والأنصار ، وأيدوا قريشاً على محمد ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش فى غزوة بدر، ويؤلبون قريش علي المسلمين ، ويثيرون حفيظتهم ضدهم ، حتى أنشد شاعر اليهود ، كعب بن الأشرف ، القصائد فى هجو المسلمين وحضّ القرشيين علي الأخذ بالثأر ، وتمادى حتى جرؤ على أن يفعل فعلته في المدينة نفسها ، وفى حضور المسلمين ، وأغضب عمله الرسول فقال قولته » من لى بابن الأشرف ؟ » فما هى

---

(١) سورة البقرة الأيه ١٤٢ و ١٤٣

(٢) سورة البقرة الأية ١٣٦ .

إلا أيام حتى دفع كعب حياته ثمناً لقصائده ، وقتله الأنصار من قبيلة الأوس[1] .

* * *

بنو قينقاع

كانت قبيلة بنى قينقاع تسيطر على شمال الحجاز ، وكانت **أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع مع الرسول** ، إذ كان الرسول قد جعل بينه وبينهم أماناً ، وشرط عليهم شروطاً فنقضوا العهد[2] ، ونزلت الآيات تخاطب الرسول « وإمّا تخافَنّ من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » (الأنفال ٥٨) ، فجمعهم الرسول في سوق بنى قينقاع وقال « يامعشر اليهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل موقعه قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » ، فقالوا « يا محمد ، لا يغرنك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا »[3] .

ثم حدث ما أثار غضب الرسول على بنى قينقاع ، فكان هذا

---

(١) الخربوطلى ص ٣٧

(٢) ابن سعد كتاب الطبقات الكبير جـ ٣ ص ٦٨

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦

الحدث شرارة الحرب ، فقد قَدِمت إمرأة تبيع أشياء لها فى سوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه (١) ، الذى تضمَّن أن تكون أموالهم غنيمة له (٢) ، وتكون النساء والذرية لهم ، ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبىّ ، وأمرهم بالجلاء عن المدينة ، فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات بأطراف الشام قبل الحجاز .

* * *

بنو النضير

فرح اليهود لهزيمة المسلمين فى أُحُد ، فجعلوا يغدرون بالمسلمين ، وقتلوا أربعة من رُسُل رسول الله إلى مدينتى عضل والقارة ، عندما

---

(١) ابن هشام ص ٤٢٧ جـ ٢ ، وارفنج : حياة محمد ص ١٥٨ ترجمة الخربوطلى .

(٢) الخربوطلى .

مر هؤلاء بمنطقة الرجيع من أرض اليهود فى طريقهم إلى المدينتين السابقتين [1] . ثم تكررت الحادثة عند بئر مؤتة ، عندما هاجموا الأربعين من قرّاء المسلمين الذين كانوا فى طريقهم إلى نجد ، وقتلوهم إلا واحداً هرب إلى المدينة ، وفى طريقه إليها التقى بيهوديين غير مسلحين ، فقتلهما ظناً منه أنهما من بنى النضير . وكان اليهوديان من بنى عامر ، فطلبت بنو عامر الدية ، فأمر الرسول بأن تدفع بنو النضير لبنى عامر ، وهم يهود أيضا ، دية الرجلين ، وتوجه الرسول إلى اجتماع ببنى النضير ، يصحبه أبو بكر وعمر وعلىّ وبعض من المسلمين ، وجلس الرسول إلى جنب جدار من بيوت بنى النضير ، فى انتظار أن يأتوه بالمال ، ولكن بنى النضير كانوا قد اتفقوا على أن يقوم واحد منهم بإلقاء حجر على الرسول من سطح المنزل الذى يجلس أسفله ، فيقتله .

وأثارت المؤامرة غضب الرسول على بنى النضير ، فطلب إليهم الجلاء عن المدينة ، وحاصرهم حتى طلبوا الصلح والرحيل ، وهاجر معظمهم إلى مدينة خيبر اليهودية الحصينة ، على مسيرة أيام من المدينة .



(١) الخربوطلى ص ٤٠ واليعقوبى جـ ٢ ص ٣٨

بنو قريظة

ولم يبق فى المدينة ، بعد جلاء بنى النضير، سوى بنى قريظة ، وهؤلاء نقضوا عهدهم مع الرسول بتحالفهم مع المشركين فى غزوة الأحزاب أو الخندق [1] ، وأسقط فى يد الرسول ، فقد كان عليه أن يصد القرشيين وحلفاءهم عن عبور الخندق ، وأن يتجنب هجوم بنى قريظة في المدينة ، واحتال حتى جلت قريش عن الخندق ، فالتفت الرسول إلى بنى قريظة ، وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه .



يهود خيبر

كانت خيبر شديدة الثراء ، وكان لليهود فيها حصون ، لجأ إليها اليهود المهاجرون من المدينة ، وجرّد لهم الرسول جيشا وفتح خيبر ، واتفق مع يهودها أن يبقوا فى أرضهم يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين ، والنصف لليهود . وسمع يهود « **الفدك** » بمعاملة الرسول الحسنة ليهود خيبر ، فطلبوا صلحاً مثل صلح خيبر .



---

(١) الخربوطلى ص ٤٢ واليعقوبى جـ ٢ ص ٣٩

الحل الإسلامى للمسألة اليهودية

حلّ الرسول المسألة اليهودية فى الدولة العربية ، بأن أوجد ، لأول مرة ، فى تلك الدولة ، ما يسمى **بأهل الذمة** ، وسمح لهم بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضيهم ، وفق ما يأخذ عليهم من شروط .
وقضى الرسول على المسألة اليهودية : بأن قضى على فردية اليهود التى كانوا يتيهون بها على العرب ، بأن جعلهم : **رعايا فى الدولة العربية الإسلامية** (١) ، وتمتعوا فيها بالحرية مقابل أداء الجزية والخراج . ولأول مرة يحكم رؤساء اليهود فى شئونهم ، وكان ذلك فى الدولة الإسلامية ، وسمى رئيسهم **رأس الجالوت** ، وكان **البستانى هو أول رأس جالوت** تولى شئون اليهود فى العصر الإسلامى ، وكان موضع تقدير من عمر بن الخطاب (٢) .

ويبرز المؤرخ « **ترتون** » تسامح المسلمين مع اليهود ، فيقول : إن **يعقوب بن إسحق الكندى** ، لم تمنعه يهوديته من أن يحترمه المسلمون ويعدونه من الفلاسفة المبرزين حتى قرّبه الخليفة المأمون من مجلسه وصار طبيبه (٣) .

---

(١) الخربوطلى ص ٤٥ وجمال سرور قيام الدولة العربية ص ١٢٠
(٢) الخربوطلى ص ٥٧ ويوسف رزق الله نزهة المشتاق ص ١٠١
(٣) الخربوطلى ص ٦١

وفى العصر العباسى الثانى تولّى وظيفة رأس الجالوت ، أو رئيس اليهود ، فى كل البلاد الإسلامية ، **دانيال بن حسدان** ، وكان المسلمون يسمون دانيال « سيدنا ابن داود » ، وكان المسلمون واليهود على السواء يقفون إجلالاً له إذا كانوا بحضرته ، ومن لم يقف له ضُرِب مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، وإذاك يصيح أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين : أفسحوا الطريق لسيدنا ابن داود . وكان دانيال ، إذا جاء إليه الخليفة ، قبّل يديه ، وكان دخله من الضرائب المفروضة على اليهود مائتى ألف دينار [١] .



وكان اليهود يعيشون حياة التسامح فى العصر العباسى [٢] ، وكان معظم الصيارفة وأصحاب المصارف فى الشام من اليهود [٣] . وولّى الخليفة المعتضد المناصب لكثير من اليهود . وكانت لهم مستعمرة كبيرة فى بغداد ، ظلت قائمة حتى سقطت المدينة فى أيدى المغول . ووجد بنيامين التطيلى ، الذى زارها سنة ١١٧٠ م ، أن بها عشر مدارس

(١) الخربوطلى ص ٦٥ والمسعودي : التنبيه ص ١١٣ ، وويل ديورانت قصة الحضارة الجزء الرابع ص ٣٦٦

(٢) دكتور فليب حتى : تاريخ العرب .

(٣) المقدسى .

ربانية ، وثلاثة وعشرين معبداً . وتُرجم العهد القديم إلى العربية فى عهد هارون الرشيد ، وتُرجم مرة أخرى فى عهد الخليفة المتوكل .

* * *

وحاصر الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩ م حتى سقطت فى أيديهم ، فتجمع اليهود فى المعبد ، وأحرقهم الصليبيون داخله حتى فنوا عن بكرة أبيهم . وعندما عاد المسلمون إلى القدس بقيادة صلاح الدين ، كان عهده عهد خير على اليهود . وعندما طردت انجلترا وفرنسا ثلاثمئة من رعاياها اليهود ، رحب بهم الملك العادل أخو صلاح الدين . وكان طبيب صلاح الدين الخاص « الميمونى » يهوديا .

* * *

وازدهرت اليهودية فى عهد الإسلام بشكل لم تعرفه فى أىٍ من بلاد الغرب ، وكانت لها جامعتان فى صور وبومبيديثا ، وتأسست بهما الطريقة الجاونية فى اليهودية . وفى سنة ٧٩٢ صار « **عنان بن داود** » حاخام أكبر على كل يهود المشرق ، ولكن الجامعتين العبريتين رفضتاه فهرب إلى فلسطين ، وأقام معبده الخاص ودعا اليهود إلى نبذ تعاليم التلمود والاكتفاء بالأسفار .

واحتج عنان على التغييرات التى أحدثها الحاخامات فى الأسفار تبعاً لما يرتأونه من تفسيرات يسقطونها على معانيها ، ومن ثم تسمى أتباعه باسم اليهود القرآئين ، من فعل قرأ ، أى أنهم يدعون إلى العودة إلى قراءة الأسفار .

وقال عنان عن **المسيح** أنه من أهل اللّه الذين كانوا يرون نبذ القانون المكتوب لموسى والالتصاق بالقانون الشفاهى للكتبة والفريسيين . وقال عنان عن المسيح إنه لم يكن يرمى إلى إقامة ديانة جديدة ، ولكن إلى تنقية اليهودية وتقويتها .

وانتشر اليهود القرآءون فى فلسطين ومصر وأسبانيا ، ولكن حركتهم ضعفت ، وانتهت فى القرن الثانى عشر ، رغم أنه ما يزال بتركيا وجنوب الروسيا بقاياهم .

وكان من الواضح أن الحركة القرآئية قد تأثرت بالمذاهب الإسلامية فى القرن التاسع ، بينما التزم السُنّيّة فى اليهودية بنفس الخطوط الفكرية التى كانت للسنية فى الإسلام . ووسط هذا الجو الفكرى الحر والثرّ معاً ، قام أول فيلسوف يهودى ، وهو **سعديا بن يوسف الفيومى** الذى ولد بقرية ديلاز من أعمال الفيوم سنة ٨٩٢ ، وتربّى فى مصر ، وتزوج فيها ، وهاجر سنة ٩١٥

إلى فلسطين ثم إلى بابل ، وصار مديراً لجامعة صور ، ثم أخذ يدلى بدلوه فى المعركة بين الشيعة والسُنّة فى اليهودية ، وكان دوره دور المتكلمين فى الإسلام ، وقضى خمسين سنة يكتب بالعربية غالبا ، وكتب « كتاب اللغة » عن النحو العبرى ، وعرّب التوراة ، وعلّق عليها ، وكانت له كتب كثيرة فى الديانة واللاهوت اليهوديْين ولم يحد من هذا الازدهار اليهودى إلا اكتساح المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ م (١) .

* * *

سارتر والمسألة اليهودية

فى سنة ١٩٤٤ كتب الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر (٢)

---

(١) The Story of Civiliztion : Will Durant, Vol.IV, P.366

(٢) جان بول سارتر : فيلسوف وكاتب فرنسى ، ولد فى باريس سنة ١٩٠٥ ، وهو أشهر كتّاب هذا العصر قاطبة ، وثانى فيلسوف بعد مارتن هيدجر . وسارتر أبو الوجودية الملحدة ،له مسرحيات ترقى إلى مستوى مآسى شكسبير ، وتتساوى مسرحيته الأيدى القذرة مع هملت شكسبير فى الروعة والعظمة المسرحيتين ، وروايته الغثيان تعتبر رائدة الرواية الجديدة ، وهو مبدع أدب المواقف . وعرف سارتر عموما بأنه منشد الحرية فى العالم ، لذلك فقد ناصر كل قضايا الحرية ، ولا ريب أن مناصرته للمسألة اليهودية فى بلاده وأوروبا أمر له مبرراته ومسوغاته ، ولكن فهمه للقضية الفلسطنية تأثر بانحيازه الواضح لليهود . ولم يشفع له أن خصص نصف أحد أعداد مجلته « العصور الحديثة » لكتّاب يدافعون عن القضية الفلسطينية . (الحفنى)

مقالا بعنوان « حول المسألة اليهودية Réflexions sur la question juive » ، وكتب فيه عن موقف اليهود فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ،ولنذكر أن سارتر يكتب عن موقف مرتبط بزمن ومكان ولا يكتب عن مشكلة أبدية ، ثم لاحظ كيف هبط مفكر كبير كهذا إلى أن تستهويه الدعاية اليهودية فيرددها بالكامل . والوقائع التى يطرحها سارتر طرحها غيره من قبل ، ولكن كلاً عالجها بطريقته بحيث تاهت الدعاية اليهودية على القارئ ، إلاَّ أن سارتر لايخفى الدعاية اليهودية ، ويطرحها كاملة كوجهة نظر له ولسوف نرى ذلك جيداً فى مقاله .

وأسقط سارتر الإحصاءات والتاريخ وتحدث إلى الفرنسيين عن مسألة لا تخصهم ولكنها تخص اليهود ، وقال إن اليهودى اضطهد ومن ثم انصرف إلى احتراف مهن اضطُر إليها ، كأن يشبّه اليهودى بامرأة بغىّ ، لم تجد من يعولها فاحترفت البغاء ، ونسى أنه كان أمامها مئات من المهن ، وأنها باختيارها للبغاء إنما كانت تختار أقرب المهن وأحبّها إلى نفسها .

واليهودى اضطهد – هكذا يقول سارتر – ولكن لماذا اضطهد أصلا ؟

وهو قد احترف الربا فى زعمه مضطراً ، فماذا لو كان الربا اختراعاً يهودياً لم تعرفه المجتمعات القديمة إلا من خلال اليهود ؟ ولقد رأينا أن انجلترا فى القرن الثانى عشر كان نصف المرابين بها من اليهود . وفي مجتمع المدينة لم يكن المرابون سوى يهود .

وينكرسارتر المسألة اليهودية ويقول أنها غير موجودة فى فرنسا لأن اليهود أرادوا الاندماج في المجتمع الفرنسي ، ولكن توجد **مسألة فرنسية** لأن المجتمع الفرنسى هو الذى يرفض اليهود .

فماذا عن يهود الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ؟ ماذا عن رفضهم الانتماء واتجاههم إلى الهجرة ؟ وماذا عن الجنسية المزدوجة لليهودى؟

المجتمع السوفيتى امتصهم لا بوصفهم بشراً ، ولكن بوصفهم المتعين ، أى بوصفهم سوفيت يهوداً ، ومع ذلك رفض اليهود الامتصاص .

ويقول سارتر إن العداء للسامية سمة البورجوازية دون غيرها ، وأنها سمة موروثة مع الثروة والعقارات ، ومن ثم لا تريد البورجوازية أن تفكر لنفسها ، وإنما هى تفكر بعقلية السلف .

وأقول إن سارتر يفكر بعقلية اليهودى ويطرح آراء وأفكاراً يهودية . ويقول إن اليهودى قيمة عالمية لأنه يفكر بطريقة عالمية :

طريقة التاجر العملية . وكل ما قال المفكرون أنه عار اليهودى جعله سارتر عظمة اليهودى .

وينكر سارتر فى فلسفته وجود طبيعة عامة للبشر ، فنحن نولد ثم تتحدد ماهيتنا من بعد ، ومن ثم تتكون لكل منا طبيعة خاصة به ، وبناءً عليه فلا وجود لما يسميه العنصريون صفات عامة لليهود أو الزنوج .

ويقول : إن كل إنسان موضوع فى موقف خاص به ، بمعنى أن الإنسان وحدة تركيبية مع موقفه - وحدة بيولوجية ثقافية اقتصادية سياسية إلخ . واليهودى إنسان يميزه موقفه .

ويقول : إنه لن ينكر أن هناك جنساً يهودياً ، بل أن هناك أجناساً يهودية من جنس واحد ، فيهود الروسيا شقر ، ويهود الجزائر جعد الشعر .

ويقول : إن المعادى للسامية يتقزز من اليهودى دينياً ، مما اضطر اليهودى لاحتراف مهن ملعونة من الكنيسة ، فهو قد جُرِّد من حق امتلاك الأرض الزراعية ، أو العمل فى الجيش ، ومن ثم تاجر في المال ، لأن التجارة فى المال لا يمكن أن يقبلها المسيحى ، وهكذا تدعمت اللعنة الأولى بلعنة اقتصادية .

فما قول سارتر في الوضع قبل المسيحية : في مصر وفي العراق وفي فارس ؟ وما قوله فيما ورد في الأناجيل عن التجارة في المعابد والتعامل بالربا حتى اضطر المسيح إلى طرد التجار من المعبد ؟؟

ويدعي سارتر أن المجتمع المسيحي هو الذي خلق مشكلة اليهودي ، وأجبره على مزاولة مهنة التجارة ، فما شأن تعاليم التالمود - أكانت بعد المسيح أم قبله ؟

ويقول سارتر إنه بدلا من أن يسأل المسيحي من هو اليهودي ، كان ينبغي أن يسأل نفسه : ماذا فعلتُ باليهودي ؟

وهكذا يخلط سارتر بين التاريخ وبين الموقف ، ويقع فريسة صريحة للدعاية اليهودية .

ويقول سارتر : إن المعادي للسامية على حق عندما يقول إن اليهودي يأكل ويشرب ويقرأ وينام ويموت كاليهودي . فما هو الشئ الآخر الذي يستطيع أن يفعله ؟

* * *

ولنتأمل ما يقوله أرثر ميللر الكاتب اليهودى ، ففى قصة له بعنوان It Takes a Thief ينظر بطله برنشتين اليهودي إلى شخص يجلس فى مقهى ثم يصيح في زميله أبيللو : أبيللو ! أنظر إلى الرجل هناك . إنه يهودى . أنا أعرفه من طريقته . هذه الطريقة هى طريقة اليهودى !!

ميللر يرى أن اليهودى يهودى ولا يمكن أن يكون إلا يهوديا ، لأن ثقافته لا تلد إلا هذا النمط من السلوك .

لكن سارتر يقول إن السلوك رد فعل للمعاملة المسيحية . سارتر أحق وأرق على اليهود من اليهود على أنفسهم !

وفى الوقت الذى يصر فيه اليهود على أن تكون لهم ثقافتهم ويرفضون أى ثقافة أخرى خلاف ثقافتهم ، الأمر الذى يترتب عليه أن يكون لهم سلوك خاص تصنعه هذه الثقافة ، يرى سارتر أن نمط السلوك اليهودي مرده نمط السلوك المسيحى وليس الثقافة اليهودية !

ويرى شتيكل عالم النفس اليهودى : أن هناك عقدة نقص يهودية ، ولكن سارتر لا يرى رأى شتيكل اليهودي . سارتر يرى أن اليهودي الذى يريد أن يزيف نفسه ليعيش كالآخرين هو وحده الذى يملك عقدة النقص اليهودية ، ولكن اليهودى الذى يحيا حياته ،

كيهودى ، لا عقدة نقص عنده !

ويزعم سارتر أن المعادى للسامية ، هو الذى يخلق المسألة اليهودية ، وأن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو الاندماج – اندماج اليهود فى مجتمعاتهم – والمعادى للسامية يرفض الاندماج !!

وكأن اليهودى نفسه لا يرفض الاندماج ! فماذا بشأن المهاجرين من الاتحاد السوفيتى وبلدان أوروبا الاشتراكية ؟ هل هناك عداء للسامية مع أن الدولة علمانية وضد الدين ، وخصوصاً الدين المسيحى بالذات ؟

ولا يرى سارتر مع ذلك أن الحل الصهيونى هو الحل الأمثل ، رغم أنه لايرفضه تماماً وصراحة ، ويرفض أن يقوم اليهود بتغيير ثقافتهم ودينهم ، وأن يتوقفوا عن الاختتان . ويقول إن نابليون كان يفكر فى شئ من ذلك . وينكر سارتر على نابليون هذا التفكير ، لأنه تضحية بالفرد اليهودى لمصلحة الجماعة المسيحية، ولا يوجد نظام ديموقراطى يسعى إلى دمج اليهود بهذا الثمن !

ويجد سارتر نفسه فى نهاية المطاف قد وقع صريع الدعاية اليهودية والتحليل الزائف ، فيرجع إلى رأى ماركس ، وهو كثيراً ما يسرق آراء ماركس ، ويُرجع العداء للسامية إلى نظام الملكية ، وأنه لولا

وجود المجتمع الطبقى لما وُجِد العداء للسامية .

ما صلة هذا بذاك ... لا أدرى ؟ ولكنه لطش فكرة ماركس ، وأفكار ماركس هى نتائج لاستخدام المنهج الجدلى فى مناقشة القضية . وأما النتيجة النهائية التى يوردها سارتر فغير متفقة مع منهجه ومع مقدماته .

ويقول سارتر إنه إلى أن يقوم مجتمع يتخلص فيه الإنسان من ملوثات العالم القديم الموروثة - مجتمع يقوم على امتلاك وسائل العمل ملكية جماعية ، وينكب فيه الإنسان بكل قلبه على مشروعه ، وهو خلق **مملكة الإنسان** ، حتى هذا الحين ستظل المشكلة اليهودية بلا حل .

* * *

المسألة اليهودية والنازية

الحزب النازى هو الحزب الاشتراكى الوطنى ، وكانت مبادؤه جمع الألمان فى مختلف أراضى أوروبا وإنشاء ألمانيا الموحدة ، ومشاركة الدولة الألمانية فى ملكية وسائل الإنتاج ، والاشتراك مع الطبقة البورجوازية والقطاع الخاص فى إقامة نظام اقتصادى وطنى يكفل للدولة موارد مالية تنفق منها على خلق جيش قوى وطنى يحقق آمال

الشعب الألمانى فى السيادة ، وآمال البورجوازية فى الغزو والفتح .

ومع أن **أدولف هتلر** مؤسس الرايخ الثالث هو حامل لواء النازية فـإنه أخـذ الفكرة عن **چورچ ريترفون شونر** مـؤسس الحـزب القومى لكل ألمانيا .

والدعوة عنصرية ، و لذلك كان صدامها شديداً بدعوة عنصرية أخرى على مستواها تماما ، فهذه تقول بتفوق الجنس الآرى ، وتلك تقول بتفوق الجنس اليهودى .

وكانت دعوة ألْمنة (أى جعله ألمانياً محضاً) الاقتصاد ومشاركة الدولة فى الملكية مصادما لدعوة **حرية التجارة والحكومة العالمية** اللتين يقول بهما اليهود . وكان الصدام حتما بين الدعوتين لسيطرة اليـهود تمـامـا على الاقـتـصـاد الألمانى ووسائل النشر والمصـارف الكبرى .

وكـان الحزب القـومى الألمانى أول مـن نحت مـصـطلح « **اليهودية العالمية وحكومتها الخفية** » ، وهـوالذى فـــضـح « **بروتوكولات حكماء صهيون** » ونشرها على العالـم أجمع ، وكـان كتـاب هتلر « **كفاحى** » أول منشـورسياسـى ينتـحل دعوة العداء للسامية . وبدأ نزوح اليهود عن وسط أوروبا إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

وكان **چورچ ريترفون شوينر** مؤسس الحزب القومي لكل ألمانيا هو الذي فتح نوافذ هتلر الذهنية لخطر اليهود ، وهزت دعوة **كارل كروجر** كيانه من أساسه ، وكان كروجر يطالب بطرد اليهود من كل أوروبا [١] .

وكان هتلر يرى « **أن غريزة حب البقاء وحفظ النوع** » [٢] وراء كل حدث من أحداث التاريخ ، ولكن الشعوب الآرية لم تتفوق على شعوب الأرض بسبب قوة هذه الغريزة ، بقدر ماكان تفوقها بسبب الشكل الخاص الذي تجلت فيه ، فالرغبة في الحياة أو حب البقاء نزعة غالبة لدى البشر كلهم ، أما الفروق فهي تظهر في حيز التطبيق .

يقول هتلر :

« ليس في عالمنا شعب نمت فيه **غريزة حب البقاء** وتبلورت كالشعب الذي يسمى نفسه « الشعب المختار » ، ولسنا نجد دليلا نسوقه على صحة هذا القول من بقاء هذا الجنس ومحافظته على طابعه وخصائصه ، وهو الذي واجه خلال ألفي عام ظروفا قاسية .

---

(١) The Rise and Fall of the Third Reich by William Shirer,P. 57,

(٢) كفاحي أدولف هتلر ص ١٥.

ويقول :

« ولقد رأينا اليهود يدخلون أنوفهم فى قضايا العالم الكبرى ، وكانت لهم يد فى كل ثورة ذات طابع انقلابى » .

ويقول :

« يصفون اليهودى فى أيامنا بأنه ماكر بل داهية ، وقد كان هذا شأنه ، إلى حدما ، فى كل وقت . بيد أن ذكاءه ليس وليد تطور ذاتى أو داخلى ، فقد نما **وتطور بفضل نتاج عقول الآخرين** ، ولا ننسى أن العقل البشرى نفسه لا يبلغ درجة الازدهاردفعة واحدة ، ففى كل خطوة يخطوها لابد له من الاستناد إلى الأسس التى خلفها له الماضى ، أى إلى معالم الحضارة العامة ، ومن هنا النظرية القائلة إن الفكرة هى وليدة تجارب متراكمة منذ مئات السنين قبل أن تكون ثمرة الاختيار الشخصى . فمستوى الحضارة العامة يزود الفرد بمعلومات أولية يتسلح بها فى محاولته الكشف عن أسرار قَصّر عن اكتشافها الذين تقدّموه » .

ويقول :

« **ليست لليهودى حضارة خاصة به** ، فأسس عمله الفكرى مستعارة ، أخذها من الذين أوجدوا الحضارات . ولئن تكن غريزة حب

البقاء عنده أقوى من أى جنس آخر ، فالشرط الأول الذى يجعل من شعب ما شعباً ذا حضارة ، ليس متوفرا فى « الشعب المختار » ، إذ ليس لليهود مثالية ، وذلك أن روح التضحية لا تتعدى عند الشعب اليهودى نطاق « الأنا » . والتضامن الذى يقوم بين اليهود والذى يبدو لنا وثيقاً ليس أكثر من تجمع آنى شبيه بتجمع قطيع من الغنم لمواجهة الخطر المشترك ، أو بتجمع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة ، فما أن تنتهى الوليمة حتى يتفرّق المدعوون . واليهودى لا يعرف معنى التضامن إلا فى حالات مماثلة ، فروح التضحية لا تتجلى ما لم يشعر كل فرد بأنه مهدد . والتضامن يصبح واجباً فى حالتين : حيال عدو مشترك أو فريسة مشتركة . فإذا انعدم الحافز تكون الأنانية هى الطابع الغالب ، ويصبح همّ اليهود أن يكيد بعضهم لبعض وأن ينهش بعضهم بعضا .

« وليست للشعب اليهودى إذن حضارة حقيقية خاصة به ، فالحضارة اليهودية ، أو التى تبدو لنا كذلك ، هى ملك شعوب أخرى تلقفها « الشعب المختار » وشوّه أكثر معالمها .

« ولكى ندرك وضع اليهود حيال الحضارة البشرية ينبغى لنا أن نضع نصب أعيننا الحقيقة الآتية : لم يعرف العالم قط شيئا اسمه « **الفن اليهودى** » ، وليس لليهود أى فضل على الفنيْن الأعظمين :

الموسيقى والهندسة . وإنتاجهم فى حقل الفنون ليس سوى نقل أو تقليد أو سرقة ، وليس أدل على صحة هذا القول من تسابق الكتّاب اليهود إلى تعهد الفن الذى لا يتطلب إلا اليسير من الابتكار ، أعنى الفن المسرحى . وحتى فى هذا الحقل يظل اليهودى مقّلِدا شأنه شأن القرد ، وهل يُنتَظر ممن يعجز عن الإبداع ، أن يخلقه مجارياً للعباقرة ؟ ولكن الصحافة اليهودية المضلِّلة لا تألو جهداً فى سبيل رفع حثالة الفنانين اليهود إلى مصاف سادةالفن ، فتراها تكيل المديح للمقلدين من أبناء « الشعب المختار » لتدخل فى روع الجمهور أنه أمام عباقرة حقيقيين .

« وليست لليهودى إذن القدرة على الخلق والإبداع ، وليست له بالتالى القدرة المثالية التى بدونها لا يمكن أن يتطور الإنسان ويرتقى . أما ذكاؤه فإنه ينزع دائماً إلى الهدم والتخريب . وفى بعض الحالات النادرة يفعل اليهودى الخير وهو يحسبه شراً فيكون قد ساهم فى خدمة البشرية ، ولكن بالرغم منه .

« ومن الخطأ أن ننظر لليهود نظرتنا إلى قوم من الرُحّل ، لا لشئ إلا لأنهم يفتقرون إلى مملكة ذات حدود معينة ، ولأن العالم لم يعرف شيئاً اسمه « حضارة يهودية » ، فالرُحّل يملكون أرضا ذات تخوم يعيشون عليها بعض الوقت ولكنهم لا يتعهدون الأرض كما يفعل

المزارعون ، بل يعتمدون في غذائهم على نتاج الماشية . ويملي على الرُحّل هذا الطراز من المعيشة ، كون الأرض التي فيها ينزلون ضئيلة الخصب ، لا تشجّع على الإقامة الدائمة . ولو كان الرحّل من الجماعات المتطورة لاستطاعوا أن يستنبتوا التربة بما تعجز من تلقائها عن إعطائه ، وهو ما فعله الآريون بفضل تكنيكهم المتفوق ، فقد أنشأوا مؤسسات ثابتة واستغلوا أراض واسعة كانت مواتا . ولولا تكنيكهم وعبقريتهم الخلاّقة لظل شأنهم شأن الرحّل لا يقر لهم قرار . ولا ننسى أن الآريين الذين هبطوا أمريكا عاشوا ردحا من الزمن وكأنهم رحّل حقيقيون ، ولكن ما أن أسلست لهم الأرض قيادها حتى بدأوا يتجمعون في مناطق معينة ، وسرعان ما كانت منشآتهم الثابتة ناطقة بقدرتهم على الخلق .

« ويبدو أن الآريين كانوا في البدء رُحّلا ، ثم استقروا حيث هم . أما اليهود فليسوا رحّلا ، لأن للرحّل مثالية أو شيئا من جوهر المثالية يجعلهم غير بعيدين عن الآريين ، وإن تكن طبيعتهم غير طبيعة هؤلاء . وإذن فلم يكن اليهود رحّلاً قط ، بل كانوا ولا يزالون طفيليات تزاحم الشعوب على مقوماتها وجودها ، ولئن هجروا مناطق كانوا قد استوطنوها مئات السنين ، فقد هجروها مرغمين ، **تشيعهم لعنة الشعوب التي هبّت تطردهم بعد أن برمت بهم وبخروجهم**

على آداب الضيافة .

« أين هذا من تنقل الرُحّل الذين يهجرون مكانهم من تلقائهم ؟ إن اليهودى لا يفكر مطلقا فى ترك مكان هو فيه ، وإذا اضطر للانتقال إلى مكان جديد ، فإنه يختار مكانا يؤمّن له أسباب البقاء دون أن يتخلى عن طابعه الخاص ، فهو طفيلى هنا كما كان طفيلياً هناك ، وبديهى أن يكون له حيثما وجد التأثير الذى للنبتة الطفيلية : فحيث يستقر اليهودى لا يلبث الشعب الذى فتح له ذراعيه أن يتلاشى ويضمحل .

« وهكذا عاش اليهود فى كل عصر ومصر . **عاشوا عالة على الشعوب** الأخرى ، وكانوا يؤسسون دولتهم الخاصة ويخفونها خلف قناع من « الجماعة الدينية » ما دامت الظروف لا تسمح لهم بفضح أهدافهم الحقيقية . أما إذا أنسوا من أنفسهم القوة على نزع القناع فإنهم يكشفون عن وجوههم الحقيقية .

« وتقوم علاقة اليهود بالشعوب التى يفعلون فيها فعل الطفيليات بالجسم، على **الكذب والتدجيل** . ألم يقل **شوبنهور** إن « الشعب المختار » هو الأستاذ الأعظم فى فن الكذب ؟ وإقامة اليهود بين الشعوب لا يمكن أن تستمر مالم يتوصلوا إلى إقناع الناس بأنهم

« جماعة دينية » لا أكثر ولا أقل . ولكن هذا الادعاء هو إحدى كذباتهم الكبيرة .

« لم يكن اليهود فى وقت من الأوقات مجرد طائفة دينية لها تقاليدها وطقوسها الخاصة ، **بل كانوا دائما شعباً له خصائصه** ، وقد بحثوا بعد تشردهم عن وسيلة يضللون بها الشعوب فلا تتبرم بـ « ضيوفها » المزعجين ، فما وجدوا أفضل من تقديم أنفسهم بأنهم جماعة دينية لا أكثر ولا أقل ، مع العلم بأن « الشعب المختار » كان في هذا الحقل ناقلا ومقلدا ومشوها ، وذلك أن اليهود لا يمكنهم أن يؤلفوا منظمة دينية لأنهم لا مثالية لهم ، ولأنهم لا يتطلعون إلى ما وراء عالمنا هذا ، فالتلمود لا يشير بكلمة إلى العالم الآخر .

«إن العقيدة الدينية اليهودية تشتمل على توجيهات بعضها يتعلق بحفظ الدم اليهودى نقيا ، وبعضها الآخر ينظم العلاقات بين اليهودى واليهودى ، والعلاقات بين الشعب المختار « وسائر الشعوب » ، ولكنها لا تنظمها على صعيد أخلاقي . وكما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ، فهى تعالج المسائل الاقتصادية بنوع خاص ، ولكنها تعالجها وبروح تفضح الدناءة التي فطر عليها اليهود . أما القيمة الروحية للتعاليم الدينية اليهودية فالدروس التى تناولتها بالبحث ، والتى جعلوها متمشية مع أهدافهم ، تعطى عنها فكرة ليست فى مصلحة الديانة

اليـــهـودية . ويعطينا اليـهـودى نفـســه الدليل على بُعـد ديانتـه عن الروحانيات ، فحياته تقوم على المادة ، وروحه كانت ولا تزال غريبة عن الروح المسيحية . ولا ريب فى أن مؤسس النصرانية لم يظلم اليهود عندما أبدى فيهم رأيا صريحا . ألم يستخدم السوط فى إخراج عدو البشرية من الهيكل لأن اليهودى كان ولا يزال **يعتبر الدين تجارة** ؟ ولأن المسيح حارب المادية اليهودية صَلَبه اليهود . أليس من المخجل أن يستجدى اليوم الحزب المسيحى فى بلادنا أصوات اليهود فى الانتخابات ، وأن ينظم الدسائس ويحيك المؤامرات ضد الوطنين بالاشتراك مع الحزب اليهودى الملحد ؟ (١) .

« وعلى الكذبة الأولى القائلة إن اليهود ليسوا جنساً بل طائفة أو جماعة دينية قامت سلسلة من الأكاذيب الخطيرة ، مثل كذبتهم فى مسألة اللسان الذى به يتكلمون ، فهو واسطة لإخفاء حقيقة ما يجول فى رءوسهم بدلا من أن يكون واسطة للتعبير عن آرائهم ، فاليهودى إذ يخاطبك بالفرنسية مثلا إنما يفكر كيهودى ، وعندما ينظم الشعر بالألمانية فاعلم أنه يعبر فقط عما يجيش فى صدر شعبه ، واليهودى يظل يتكلم لغات الشعوب مادام مهيض الجناح ، ولكن ما أن يخضعها

---

(١) يقصد الحزب الشيوعى إشارة إلى مؤسسه كارل ماركس اليهودى ، وقيام الشيوعية على رفض الدين . (الحفنى) .

لسيطرته حتى يدعوها إلى التخاطب بلغة عالمية (كالاسبيرانتو مثلا) ليتسنى لليهودية أن تطويهم تحت جناحيها بيسر وسهولة .

« ولقد أظهر « بروتوكول حكماء صهيون » الذى أنكر اليهود وجوده بشدة مغالٍ فيها ، **أن وجود هذا الشعب يرتكز على كذبة دائمة** ، أما تأكيدهم أن البروتوكول مدسوس على اليهود ، فلا يعدو كونه محاولة تضليل استمدوا عناصرها من منجم الكذب اليهودى الذى وضع القواعد التى اشتمل عليها البروتوكول ، فالواضح أن الوثيقة تفضح طبيعة النشاط اليهودى وما يهدف إليه . وهاهى وقائع القرن الماضــى والسنوات التــى مضــت مـن القرن العشـرين تشهـد بأن « بروتوكولات حكماء صهيون » قد نفذ بعض ما جاء فيها بدقة وإحكام . أفنعجب والحالة هذه لتصايح الصحافة اليهودية وحرصها على إنكار وجود الوثيقة ؟ إن إحاطة الشعوب بخطط اليهود ومراميهم البعيدة قمينة بالقضاء على الخطر اليهودى قضاء مبرما » .

« ولمعرفة اليهودى حق المعرفة لست أجد طريقة أصلح من تتبع خطاه خلال العصور . ولما كان نموه واحداً فى كل عصر ، وكانت الشعوب التى عاش على حسابها لم تتبدل ، فمثال واحد يكفى لتنوير الأذهان .

« هبطت طلائع اليهود الأرض الجرمانية فى أعقاب الجحافل الرومانية الغازية ، وانتشروا فى البلاد بصفة كونهم تجارا ، وخلال الانقلابات التى سببتها الهجرة الواسعة اختفى اليهود فى الظاهر ، ليظهروا من جديد حالما بدأت تتكون الدولة الجرمانية . وفى هذه المرة أيضا ظهروا كتجار ، ولم يهتموا بإخفاء طابعهم المميز لأن سماتهم وجهلهم باللغة كانت تفضح تنافرهم مع مُضيفيهم ، بيد أن كونهم غرباء ويهوداً لم يجر عليهم شيئا من المتاعب ، فالجرمان مضيافون ويعطفون على الغريب أياً كان .

«ولم يمض وقت طويل حتى تسلل اليهود إلى الحياة الاقتصادية ليس كمنتجين بل كوسطاء . وقد أهّلتهم براعتهم التجارية والمران الطويل لأن يبزّوا الآريين فى الميدان التجارى حتى **أوشكت التجارة أن تكون وقفاً عليهم** .

« وبدأ اليهودى يقرض الناس المال بفائدة فاحشة ، ولم يكن الآريون قد اعتادوا هذا النوع من القروض ، فلم يتنبهوا إلى خطره إلا بعد فوات الأوان .

« وبعد أن احتكر اليهود التجارة والأعمال المالية ، شغلوا فى المدن أحياء خاصة بهم ، مؤلفين دولة ضمن الدولة . ولكن الفوائد الفاحشة

التى كانوا يتقاضونها أفقدتهم عطف الناس وازداد النفور منهم ، واشتدت النقمة عليهم عندما راحوا يرهنون الأرض الواسعة ويتحكمون فى رقاب مالكيها وفلاحيها تحكماً ألّب عليهم ضحاياهم فى النهاية ، وقد اكتشفوا فى هؤلاء الغرباء طفيليات مزعجة وخطرة .

« وحيال هذه النقمة التى عُبِّر عنها فى بعض المناطق باستخدام العنف فى تأديب المرابين اليهود ، لجأ « الضيوف » إلى الحكام ، واستطاعوا بسحر المال وشتى المغريات استدراجهم إلى تزويد كل يهودى بكتاب يؤمّن له حماية شخصه وثروته ، وهكذا أطلق الحكام للعَلَق أن يمتص دم الضحية ، وعادوا تحت ضغط الرأى العام ، فأخضعوا انتقال الأراضى لقيود ثقيلة وحظروا على المرابين رهنها . وأذعن اليهود أو تظاهروا بالإذعان ، يقيناً منهم أن الحكام سيستنجدون بهم يوم يعوزهم المال ، وقد كان ، وتسلم المرابون مقابل أموالهم وثائق تطلق يدهم فى استثمار رءوس أموالهم وتمنحهم الامتيازات التى يتمتع بها أرباب الإقطاع . أما أموالهم التى دفعوها فقد تنازلوا عنها غير أسفين ، لعلمهم أنهم قادرون على استردادها من جيوب الرعية أضعافاً مضاعفة عن طريق الفائدة المركبة ... وترتب على هذه السياسة عجز **الأمة الألمانية عن التحرر نهائياً من الخطر اليهودى** .

« وفى عهد فريدريك الكبير قامت حركة فكرية ضد زواج اليهود من ألمانيات وزواج الألمان من يهوديات ، وتزعم هذه الحركة **جوته** [(1)] الذى لم يكن رجعيا ولا قصير النظر . وأيد الشعب الحركة لأنه أدرك منذ زمن بعيد أن اليهود عنصر غريب تغلغل فى كيان الأمة دون أن يتخلى عن طابعه المميز وتقاليده.

« ولم تفت اليهود خطورة الحركة فقرروا الاندماج نهائيا فى الأمة الألمانية دون أن يتخلوا عن خصائصهم ، ولم يكن لهم من الألمانية سوى اللسان الذى اتقنوه مع الزمن . ومتى كانت اللغة قوام الجنسية ؟ هذه الحقيقة لم تفت « الشعب المختار » . ومن هنا كان عدم اهتمامه بالحفاظ على لغته وحرصه الشديد على بقاء دمه نقيا ، لأن الدم هو قوام الجنس . وليس أسهل من تعلم لغة شعب من الشعوب ، ولكن المرء يعبر باللغة الجديدة عن أفكاره القديمة . واليهودى يمكنه إتقان مائة لغة ، ولكنه **يظل يهوديا بتفكيره** .

« ولقد قرر اليهود أن تكون الصبغة الألمانية طابعهم الغالب لأنهم بدأوا يلمسون كراهية الشعب لهم ، وشعروا فى الوقت نفسه بتداعى

---

(١) جوته : (١٧٤٩ – ١٨٣٢) ولفجانج جوته أشهر كاتب وشاعر ألمانى ، وهو مؤلف مأساة الدكتور فاوست واجمونت ، وعرف عنه حبه للأدب العربى والآداب الشرقية .

نفوذ حماتهم الذين كرههم الشعب لتأييدهم لليهود ضدهم . كما شعروا بالحاجة إلى مرتكز جديد يستندون إليه فى توسيع نطاق نشاطهم الاقتصادى دون أن يترتب على ذلك تفاقم النقمة الشعبية عليهم . فبدأوا بأن طالبوا لأنفسهم بالحقوق المدنية التى يتمتع بها الألمان الحقيقيون ، ثم وزّعوا الأدوار على أنفسهم ، فإلى جانب الذين تسللوا إلى قصور الأمراء وفرضوا أنفسهم مستشارين ورجال بطانة ، راح رفاق لهم يتوددون إلى الشعب ، متظاهرين بالحدب عليه ، ومشاطرته آلامه والمشاكل التى يعانيها . ولم تكن مهمة هذا الفريق هيّنة ، لأن الشعب ، على طيبة قلبه وضعف ذاكرته لا يطمئن بسهولة إلى الذين استغلوه دون شفقة ، ثم أقبلوا عليه يواسونه ويتفجعون على مصيره .

« وبدأ اليهودى بإيهام الشعب أنه يريد أن يكفّر عن إساءته إليه بأعمال إنسانية خالصة لوجه الله ، ولكنه حرص على إفهام الخاص والعام كم هى جسيمة تضحياته فى سبيل تحسين مستوى الطبقات الكادحة . وما يزال يردد هذه النغمة وينشرها بمختلف وسائل النشر حتى بدأ الناس فى ألمانيا وخارجها يميلون إلى تصديق ادعادته ، أما الذين ارتابوا فى صدقها فقد اتُهموا بسوء النية وبالتحامل على اليهودى « المسكين » .

« ولم يقف الأمـر عند هذا الحـد ، فـقـد انقلب اليـهـودى بين ليلةوضحاها إلى داعية للتحرر ونصير للحرية ، والتهب غيرة وحماسة ، ولم يلبث حتى حمل راية التقدم ومشى فى طليعة ناشرى الأفكار الجديدة ، إلا أن هذا لم يمنعه من الاستمرار فى تقويض أسس الاقتصاد القومى . وقد تمكن من التسلل إلى حقل الإنتاج عن طريق الشركات المساهمة ، مجرداً بذلك الصناعة الألمانية من الأسس التى تقوم عليها الملكية الفردية . وسرعان ما ترتب على تدخله قيام **هوة سحيقة بين أرباب العمل وعمّالهم ، نجم عنها فيما بعد انقسام المجتمع إلى طبقات .**

وشدّد اليهودى فى الوقت نفسه قبضته على البورصة مما أتاح له الإشراف المطلق على نشاط الأمة فى كل حقل ، وحرصاً منه على تقوية مركزه فى الدولة عمل جاهداً فى سبيل دكّ الحواجز التى كانت تعوق خطاه .. وكان عليه أن يبدأ بالدعوة إلى التسامح الدينى فاستخدم الماسونية فى تحقيق هذه الغاية ، وكانت الماسونية قد جذبت إلى شراكها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبورجوازيين ورجال الفكر ... وفى الوقت نفسه تظاهر اليهود بالتعطش إلى المعرفة ، ولم يضنّوا بالثناء على كل حركة تقدمية ، واختصوا بثنائهم الحركات التى يترتب على نجاحها خراب الآخرين ، أما التى تعود بالنفع على البشر

فقد حاربوها دون هوادة ، لأن بروتوكولات حكماء صهيون قد أوصت بمحاربة كل حضارة حقيقية ، والوقوف فى طريق كل تقدم حقيقى ، لأن هذه وتلك لا يخدمان الأهداف اليهودية ... وأدرك اليهود بثاقب نظرهم أن طبقة العمال الكادحين أو البروليتاريا ، وهى الطبقة الجديدة فى المجتمع التى ظهرت مع الثورة الصناعية ، يمكن أن تغير مجرى التاريخ ، فتقرّبوا منها ، وتبنّوا قضيتها ومفهومها للعمل وشروطه ونتائجه ،دون أن يتخلوا عن أسلوبهم الرأسمالي .. وسرعان ما أضحى اليهودى [1] قائد الحملة العمالية ، هذه الحملة التى كانت فى الأصل موجهة ضده ، ولكنه عرف كيف يتنصل من كل تبعة ليلقى الوزر على الأبرياء . أجل تبنّى اليهودى قضية البروليتاريا ليحارب بالعمال الناقمين الطبقة البورجوازية ، وكان من قبل قد حارب بالطبقة البورجوازية طبقة الإقطاعيين ، واستند على البورجوازية فى استخلاص الحقوق المدنية من الطبقة الإقطاعية . وراحت الدعاية اليهودية البارعة توجه الحركة العمالية توجيهايتفق وهدف اليهودية الأسمى : السيطرة على العالم [2] .

---

(١) يقصد كارل ماركس زعيم الحركة الماركسية العمالية .

(٢) يقصد دعوة ماركس لتأليف دولة عمالية عالمية.

وبعد أن تم لليهود الإشراف الفعلى على الدولة ، اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، تخلّوا عن تحفظهم التقليدى وكشفوا عما يسميه أئمتهم « أهداف اليهودية العالمية ، أو أهداف الصهيونية ، وكفّوا عن الادعاء أنهم جماعة دينية ، ليصارحوا الناس فى كل مكان بأنهم يؤلفون جنساً له طابعه وخصائصه ، وأن مطمحهم القومى هو إنشاء وطن فى فلسطين، لا تكون له معالم الدولة بمفهومها الحديث بل يكون الأرض التى يتطلع إليها اليهود المنتشرون فى كل بلد ، على أنها الملجأ الأخيرالذى إليه يفزعون » .

❄ ❄ ❄

تلك كانت عجالة من كتاب هتلر « كفاحى » وبالطبع كان هتلر يردد ما يجرى به الفكر الألمانى عموما ، ونظريات جوبينو وتشمبرلين خصوصاً . وكان فشته الفيلسوف قد وجه خطاباً إلى الأمة الألمانية سنة ١٨٠٧ بعد هزيمتها أمام نابليون فى يينا . وأعلى فشته من قدر الألمان وحطّ من قدر الفرنسيين ، وأسلك اليهود معهم . وجاء هيجل سنة ١٨٢٤ أستاذ كارل ماركس ولينين ، ولكنه بعكسهما مجّد الدولة ورأى فيها تجسيداً للفكرة الأخلاقية ، وقال إن فترات السعادة فى العالم هى فترات الخواء ، فترات الاتفاق بدون صراع ، ولكن الحرب نعمة ، لأنها مُطّهِرة ، وهى تُصلح من صحة الشعوب التى يفسدها

طول السلام ، كما يحفظ هبوب العواصف البحر من العطب الذى قد يصاب به لو أنه كان ساجيا ساكنا لمدة طويلة . وحفظ هتلر عن هيجل نظريته فى البطل ، هذا الذى يمتلأ برسالةٍ وإرادةِ روح العالم .

* * *

ثم تعاقب على الجامعة هاينريش فون تريتشك حتى سنة ١٨٩٦ ، وظل يدرّس التاريخ ، واشتُهرت محاضراته ، وأمّها الضباط والجنرالات ، وكان تأثيره على الفكر الألمانى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ضخما ، وظل قويا حتى أيام فلهلم الثانى وأدولف هتلر ، ومع أنه كان ساكسونيا إلا أنه صار من غلاة البروسيين ، وصار بروسياً أكثر من البروسيين . وهو مثل هيجل مجّد الدولة وجعلها الأسمى ، أما المواطن فلا يهم - « لا يهم ما تفكر فيه طالما أنك تطيع » . وبزّ فون تريتشيك هيجل فجعل الحرب أعلى تعبير للإنسان ، وقال « إن المجد العسكرى هو أساس كل الفضائل السياسية » و « إن الحرب ليست فقط ضرورة عملية ، ولكنها ضرورة نظرية كذلك ، ضرورة يفرضها المنطق » . ويتضمن مفهوم الدولة مفهوم الحرب ، لأن جوهر الدولة هو السلطة . وبشّر الفيلسوف نيتشه بمجئ السوبرمان ، وصاغ المؤلف الموسيقى الأكبر فاجنر أسطورة

الشـــعب الألمانى ، إلا أن ذلك كله لم يكن يعـــدل تأثيـــر **جوبينو وتشمبرلين** .

* * *

وكان جوبينو قد كتب كتاباً ضخماً من أربعة أجزاء ، نشره فى باريس بين سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٥ بعنوان " **مقال فى عدم المساواة بين الأجناس البشرية** " (Essai sur l'inégalité des races humaines : Gobineau) : وقال إن المسألة الأجناسية هى التى تسيطر على ما عداها من مشاكل التاريخ . وهناك ثلاثة أجناس كبرى ، وهى الأبيض والأصفر والأسود ، والأبيض هو الأسمى ، ويوضح التاريخ أن كل الحضارة تنبع من الجنس الأبيض ، وأنه لا حضارة هناك يمكن أن توجد دون معاونة من هذا الجنس . وجوهرة الجنس الأبيض هو الجنس الآرى ، هذه الشجرة المشهورة ، أنبل شجرة فى بستان الجنس الأبيض . وتتبع جوبينو شجرة الجنس الآرى إلى أواسط آسيا .

أما **هوستون تشمبرلين** ، فكان إنجليزياً ، ولكنه تعلم الألمانية وكتب بها وأتقنها ، وعاش فى ألمانيا بقية عمره ، وتجنّس بالجنسية الألمانية ، وألّف كتابه الأشهر « أسس القرن التاسع عشر

« Die Grundlagen des 19 . Jahrhunderts » فى ١٩ شهراً ، ما بين أول إبريل سنة ١٨٩٧ وأكتوبر سنة ١٨٩٨ ، فى فينيا ونشره سنة ١٨٩٩ ، فكان أساس الفكر الألمانى المعادى للسامية ، ولعلنا نستطيع أن نتتبع العداء للسامية إلى أبعد من ذلك ، إلى مؤسس البروتستانتية **مارتن لوثر** ، فلقد كان هذا المفكر العظيم شديد العداء للسامية ، وشديد التأييد للدعوة للطاعة للسلطة السياسية ، وكان يريد « أن تتخلص ألمانيا من اليهود ، وأن يسلبوا من كل ثرواتهم قبل أن يطردوا ، وأن تحرق معابدهم ومدارسهم ، وأن تدمر منازلهم ، وأن يوضعوا فى الزرائب كالخنازير ، فى البؤس والأسر » .



الحل السوفيتى للمسألة اليهودية

ورأى الاتحاد السوفيتى فى ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨ أن يخصص قطعة من الأرض يستعمرها اليهود السوفييت داخل حدود الاتحاد السوفيتى نفسه ، أى أنه حلّ المسألة اليهودية باستقلال اليهود داخل الدولة السوفيتية ، فاقتطعهم منطقة بيرو - بيدجان ، على أمل أن يتجمع فيها يهود الاتحاد السوفيتى كله ، وأن يطوروها بحيث تتمتع بعد ذلك بالحكم الذاتى وتصبح جمهورية سوفيتية يهودية ، ووصف

كالينين اليهودى ، وعضو اللجنة العليا للاتحاد السوفيتى الغرض من الاستيطان فى بيرو بيدجان فقال « إن هؤلاء اليهود الذين تعد الثقافة القومية اليهودية شيئاً عزيزاً عليهم ، والذين يرغبون فى تطوير وحدة الدولة اليهودية كأساس تقوم عليه الثقافة اليهودية ، على شرط أن تكون ذات محتوى اشتراكى ، يجب أن يساعدوا فى بناء بيرو بيدجان[١] » .

وقال « إن يهود بيرو – بيدجان لن يكونوا قومية لهم صفات يهود مدن بولندا ، ولتوانيا إلخ ، إنما اليهود سيكونون مستعمرين اشتراكيين ، وسيكونون مجموعة قومية داخل قوميات الأسرة السوفيتية . وسيتحقق هذا طبعا على مر الزمن »[٢] .

❊ ❊ ❊

بيرو بيدچان Biro Bidjan

منطقة ضخمة المساحة تزيد قليلا عن نصف مساحة بريطانيا وتقع فى أقصى المنطقة الشرقية من سيبيريا ، وتمتد من نهر « أمور » شمالا ، ويخترقها من الوسط خط سكة حديد سيبيريا ، ويحدها شرقا على بعد عدة أميال من مدينة خاباروفسك عاصمة أقصى المنطقة

(١) Jews in the U. S. S. R. P. 33

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

الشرقية والتى تبعد عن فلاديفوستك بنحو ١٨ ساعة بالسكة الحديد ، وعاصمة المنطقة هى مدينة بيرو بيدجان ، وكانت تسمى قديما « تيخون كاجا » ، وتمر بها كل القطارات السريعة بين فلاديفوستك وموسكو . وكانت المنطقة قبل أن تخصص لليهود يسكنها نحو ٣٠,٠٠٠ من جنسيات مختلفة .

وبوصول اليهود إليها أصبح عدد سكانها أربعة أضعاف . وتغطى النباتات أكثر من نصفها ، وهناك مساحات كبيرة من المراعى الغنية ، والمياه بها متوفرة ، ويستخرج منها الجرانيت والجرافيت والمغنسيوم والبازلت وأحجار البناء والكوارتز والحديد والفحم . والأرض خصبة للغاية وتنتج بوفـرة الأرز والقمح والجـزر وفول الصويا والحبوب . وقالت مجـلة « جويش كرونيكل » البريطانية « إن سكان المنطقة ذاتية الحكم يزيدون باستمرار ، ويتدفق اليهود المهاجرون من كل أنحاء الاتحاد السوفيتى إليها، وخصوصا الشباب » .

ويعلق اليهودى [١] ريناب على ذلك فيقول [٢] : وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تُحل بها المسألة اليهودية فى الدول الغربية

(١) Anti-semitism and the Jewish Question by I. Rennap.

(٢) أ . ريناب عضو الحزب الشيوعى البريطانى : وهو يهودى ورأيه هنا يهمنا بوصفه وجهة نظر تأخذ بالماركسية من جهة ، وترى فى الحل السوفيتى حلا أمثل للأمانى القومية اليهودية .

التى بها جاليات يهودية ضخمة ، كالولايات المتحدة ، والتى يقدر يهودها طبقا للجويش كرونيكل بخمسة ملايين ونصف .

ومع ذلك حاربت الصيهونية الحل السوفيتى للمسألة اليهودية . فما رأى سارتر فى هذا ؟ وذهبت معارضة المؤتمر الصيهونى العالمى للحل السوفيتى إلى حد اتهامه بأنه يقضى على قومية اليهود !

ويرد « ريناب » اليهودى البريطانى على قرار الصهيونية العالمية فيقول : إن اليهودية ليست قالبا جامدا مطلقا لا يتغير . وينسى اليهود الصهاينة أن الثقافة اليهودية قد تناولها التغيير فى الماضى لتتناسب مع المراحل المختلفة من التطور التاريخى . ويستطرد فيقول : إن الثقافة اليهودية فى الاتحاد السوفيتى نوع من الثقافة أسمى فى رأى الصهاينة من اليهودية ذاتها ، مع أنها جزء لا يتجزأ من المجتمع الجديد » .

ويرى ريناب - وهذا هوالكلام العلمى - أن اضطهاد اليهودى ليس له مصدر إلا متناقضات المجتمع الرأسمالى والبورچوازى الأوروبى ، وليس إلا نوعا من الاضطهادات العديدة التى فى هذه المجتمعات . ولكن المجتمع الاشتراكى يقوم على أسس من التكافؤ والمساواة والاشتراكية ، ويلغى كل التناقضات والاضطهادات ومنها

اضطهاد اليهودى ، ومن ثم لا تعدو هناك مسألة يهودية فى المجتمع الاشتراكى . وواجب اليهودى أن يحول جهده لا إلى تأسيس وتدعيم دولة إسرائيل فى فلسطين عن طريق طرد الفلسطينين واضطهاد العرب ، بل الانضمام إلى الطبقات المضطهدة الأخرى فى مجتمعات كل العالم وخلق جبهة اشتراكية قوية ضد الرأسمالية والإمبريالية والبورجوازية ، وهى النظم التى تقوم على الاضطهاد وتقسيم الطبقات والاستغلال .

* * *

الحل الصهيونى للمسألة اليهودية

تقوم الحركة الصهيونية على فكرة إنشاء وطن قومى ليهود العالم فى فلسطين كحل للمسألة اليهودية . وتقول الحركة الصهيونية إن اليهود خارج إسرائيل سيظلون أغرابا وسيبقون مهددين بالاضطهاد حتى تكون لهم دولة . وتدعى الحركة الصهيونية أن فلسطين هى الأرض الطبيعية التى يمكن أن تقوم عليها دولة يهودية لعلاقاتهم التاريخية [١] بها . ويدّعى بعض الصهاينة أنهم اشتراكيون ، بل تدعى حركة داخل إسرائيل أنها حركة وحزب اشتراكى عمالى ، واشتركت

(١) The Jewish State : Herzel, Theodore. Newyork, Maccabean Publishing Company 1904 .

إسرائيل بحزبها الاشتراكي العمالي في الحركة الاشتراكية الدولية وفي المؤتمر الليبرالي ، وتدّعي الحركة الصهيونية أن بها حركة شيوعية وحزباً شيوعياً . ولكن الاشتراكيين الإسرائيليين يرون أن تحقيق الاشتراكية الحقيقية أمر مرهون بالمستقبل البعيد ، وأما الآن فالشئ العاجل هو بناء الوطن القومي اليهودي . ويصف ريناب ، في المرجع السابق ، الحركة الصهيونية (١) فيقول : إنها لا يمكن أن تندرج ضمن المعاني التي تتوارد بلفظة صهيون التي في الطقوس الدينية اليهودية ، لأن الصهيونية بمعناها الحالي شكل حديث للجيتو القديم .

ويقول ريناب : إن اليهود كانوا في كل مكان يعتنقون وينضمون للحركات التحررية ، لأنها كانت تفيدهم ، فالثورة الفرنسية أفادتهم ،

---

(١) الحركة الصهيونية نسبةإلى صهيون ، وصهيون بالاسم رابية في أورشليم ، والاسم كنعاني وليس عبريا ، وبنى داود قصره بعد انتقاله من حبرون (الخليل) إلى بيت المقدس في القرن الحادي عشر ق . م . فوق رابية صهيون ، وصارت كلمة صهيون مع الزمن تعني الحكومة الدينية اليهودية . وقبل قيام الحركة الصهيونية قامت منظمة في الروسيا اسمها عشاق صهيون يرجع إليها سبب تسمية الحركة الصهيونية من بعد ، وكان لها فروع خارج روسيا ، وانتمى إليها يهود بارزون مثل والد وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، وكيش ، وبن جوريون ، وبنيتويش ، وسوكولوف صاحب كتاب تاريخ الصهاينة . وكانت عشاق صهيون أول منظمة ترسل رواداً يهودا لاستعمارفلسطين ، وهي التي اغتالت القيصر إسكندر الثاني في ١٣ مارس سنة ١٨٨١ (الحفني) .

والليبرالية أفادتهم ، ووطنية البورجوازية الجديدة أفادتهم ، وسرعان ما قامت بين اليهود حركة أطلقوا عليها اسم هاسكالا haskalah أى التنوير ، قامت فى بولندا ولتوانيا وألمانيا والروسيا ، وهدفت إلى نشر التعليم العلمانى والثقافة اليهودية القديمة على ضوء الثورة العلمية والعقلية ، وأدخلوا الأدب والفلسفة الأوروبيين فى الحياة اليهودية ، ودرس المثقفون اليهود اللغة الألمانية ، وقرأوا جوته [1] وكنط وفشته وشيللنج وغيرهم من فلاسفة الحركة الإنسانية البورجوازية وترجموهم إلى العبرية .

---

(١) جوته Goethe شاعر ألمانى (١٧٩٤ - ١٨٣٢) ، بل من أكبر شعراء ألمانيا قاطبة ، وأثره على الفكر الألمانى والإنسانى أكبر من أثر شكسبير ، حرر اللغة الألمانية من الجفاف ، وألهم شعره الموسيقيين ، واشتهر بتحفته « فاوست » فى المسرح « وآلام فرتر » و« فيلهلم ميستر » فى الرواية وقاد المسرح والفكر والأدب الألمانى مع هيردر وشيللر . أما « كنط Kant » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فهو الفيلسوف الألمانى مؤلف نقد العقل الخالص ونقد العقل العلمى ، مثالى النزعة ويرى أن الأشياء لا توجد كظواهر ولكنها توجد كأشكال يعيها الحس ، ويؤمن بالحرية وبالله . وفشته Fichte (١٧٦٢ - ١٨١٤) فيلسوف ألمانى تلميذ كنط وأستاذ شيللنج ، يختلف مذهبه عن مذهب كنط فلقد صار مثاليا مطلقا ولا وجود عنده للواقع إلا وجود الأنا . وشيللنج Schelling فيلسوف ألمانى(١٧٧٥ - ١٧٥٤) له تأثيره الضخم على الفلسفة الألمانية ، وهو يتبع فشته ويرفض الواقع إلا الأنا المطلق الذى يعبر عن ذاته فى العالم . (الحفنى)

ثم ظهرت حركة تسمى **الصهيونية الاشتراكية** ، مؤداها أنه فى دولة يهودية فقط ، تنميها الرأسمالية اليهودية ، يمكن أن تنهض بروليتاريا يهودية تناضل من أجل الاشتراكية إلى جانب عمال العالم ، وإذن فينبغى أن يعمل الاشتراكيون اليهود وغير اليهود على تكوين الدولة اليهودية أولا حيث يتعاون فيها الرأسماليون والعمال . ويصف لينين هذه الحركات التحريفية بأنها حركات انتهازية تستغل الحركة الاشتراكية لمصلحتها القومية . ويقوم الحزب العمالى الاشتراكى الإسرائيلى على هذا الأساس الفكرى ، ويشارك بهذه الانتهازية فى الحركة الاشتراكيةالدولية . وهؤلاء الاشتراكيون الإسرائيليون رغم ادعائهم احتقار البورجوازية إلا أنهم يهدفون إلى نفس غاياتها وهى دعم الصيهونية ، ولكنهم يتخذون لأنفسهم طريق الاشتراكية أو ادعاء الاشتراكية ، رغم علمهم وعلم الحركة الاشتراكية الدولية أن الصهيونية تتعارض شكلا وموضوعا مع الاشتراكية . ولقد اختار بوروشوف **زعيم الحركة الصهيونية العمالية** Labour Zionism فلسطين لتقوم عليها الدولة اليهودية ، ولم يستطع أن يعطى سبباً لاختياره ، وأعلن مع ذلك أنه اشتراكى .

ولقد تجاهلت الحركة الاشتراكية الصهيونية أن أرض فلسطين عربية ، وأن فلسطين رغم احتلال تركيا لها فقد كان لشعبها العربى

أمانيه فى الاستقلال ، وكانوا قد بدأوا يطلبونه منذ أربعينات القرن التاسع عشر ، وعندما احتج بعض المفكرين الاشتراكيين بأن فلسطين يسكنها شعب عربى لم يبال بوروشوف ووصفهم بالبدائية ، ثم انثنى يقول إن العرب يمكن أن يندمجوا فى الدولة اليهودية . طبعا دعوة لطيفة من إنسان يقال إنه ناضل ضد اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى ، لكن ربما كان العرب مختلفين ، وما هو غير مقبول لدى الإسرائيليين يصبح مقبولا لدى العرب !!!

❋ ❋ ❋

الصهيونية والتحالف الإمبريالى

ارتبطت الصهيونية بالرأسمالية العالمية ، فكان للشركات الاحتكارية الكبرى فى العالم فروع لها فى إسرائيل منذ قيامها ، وحتى قبل قيام إسرائيل ، وكانت لهذه الشركات الكبرى مجالس إدارة من الرأسماليين من اليهود ، كشركة الصناعات الكيماوية البريطانية كاديراس وشركاه ، وشركة ماركس وسبنسر ، وشركة بوتاس فلسطين ، وكان على هذه الشركات يهود متعصبون ، مثل بارون ملك صناعة الطباق والدخان ، وهارى ساكر مدير ماركس وسبنسر ، وسيمون ماركس رئيس مجلس إدارتها ، وا . م سييف وزوجته ريبكا

سيف ، وكلهم رأسماليون بريطانيون يهود .

أما الرأسمالية اليهودية الأمريكية فكانت تمثلها شركة تأمينات برودينشيال أند صن لايف أشورينس ، ولها استثماراتها فى قروض البناء فى فلسطين بلغت ١,٧٥٠,٠٠٩ جنيه استرلينى حتى نهاية سنة ١٩٣٥ ، وقدم بنك لويدز وبنك باركليز قروضا ضخمة لصالح المؤسسات اليهودية التى تقوم بشراء الأراضى من العرب . وأعلنت الحركة الصهيونية أكثر من مرة أنها تستخدم الإمبريالية البريطانية لخدمة مصالح الصهيونية وأهدافها ، ووضح هذا الاستخدام بشكل سافر فى « **الورقة البيضاء** The White Paper » التى نشرت سنة ١٩٣٩ ، تحت ضغط التهديد بانتشار الفكر الفاشى فى العالم العربى ، كرد فعل للاستعمار البريطانى ، ونددت الورقة البيضاء بإعلان بلفور ولكنها اعتبرت أن لليهود الأقلية فى فلسطين حقوقا ، وجاء تعبيرها عن ذلك هكذا « **حقوق الأقلية اليسوف** » ، واليسوف هم الأقلية اليهود ، ومعنى ذلك أن بريطانيا ، بعد أن ساعدت اليهود طوال هذه المدة ، ومن الحرب العالمية الأولى حتى بداية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وخوفا من انتشار الفاشية فى العالم العربى ، تراجعت ووعدت بأن يظل اليهود فى فلسطين أقلية ، وبذلك وجهت ضربة شديدة إلى حلم الحركة الصهيونية فى إقامة حكومة

إسرائيلية ذات أغلبية يهودية مطلقة فى فلسطين .

وكان هناك نحو ٦٠,٠٠٠ يهودى فى فلسطين سنة ١٩١٤ ، بينما كان عدد السكان العرب ٥٠٠,٠٠٠ ، وفى ظل الاحتلال البريطانى صار عدد اليهود ٥٠٠,٠٠٠ والعرب مليونا، وفى سنة ١٩٣٢ دخل فلسطين ٢٠٠,٠٠٠ يهودى ، وبلغت الاستثمارات البريطانية والأمريكية سنة ١٩٣٦ ثلاثين مليونا من الجنيهات ، ثم ١٠٥ مليونا حتى سنة ١٩٤٠ [1] واستولت على امتيازات استغلال الملح من البحر الميت والبوتاس ، ومشروعات توليد الكهرباء من مياه الأردن ، والأسمنت ، وبلغت مشتريات الصندوق القومى اليهودى من الأراضى الزراعية العربية حداً مذهلا ، ففى المدة من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢٩ بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمناً لعدد ١٧٥,٠٠٠ دونم ، وفى المدة من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ بلغت ٤,٥٣١,٠٠٠ جنيه ثمناً لعدد ٥٠,٠٠٠ دونم . وكانت معظم هذه الأراضى فى المناطق الخصبة ، وعمل الهستدروت [2] على اتباع سياسة التفرقة بين اليهود والعرب فى

---

(١) ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٠ Jewish Chronicle

(٢) الهستدروت : الحركة العمالية اليهودية ، وهى حركة نقابية تعاونية نوه عنها العلامة هارولدلاسكى و هـ . ج . كول ، ولكنهما فى الحقيقة لم يتعمقاها لأنها حركة استعمارية روحا ، « والأهداف النقابية ليست هى الأصل الذى تسعى إليه ، ومن ثم دعوى إشتراكيتها قائمة على أساس المغالطة » .

المصانع والمزارع بالإضافة إلى عملية الإفقار المستمرة للمؤسسات العربية ، وعدم قدرتها على منافسة المؤسسات اليهودية ، ومزاحمة العمالة اليهودية للعمالة العربية ، والحرف والمهن اليهودية للحرف العربية ، وتسبب هذا كله فى إيجاد روح من المرارة بين السكان العرب ، وقامت حركة القومية العربية بتزعم الإضراب العام المشهور سنة ١٩٣٦ ضد اليهود وبريطانيا ، وعندئذ بدأ العالم الغربى والحركة الصهيونية نفسها يفيقان على الخطأ الذى ارتكباه بتجاهلهما للعرب سكان فلسطين الأصليين ، الذين قويت مطالبتهم لبريطانيا بالاستقلال . وهكذا صارت فى فلسطين حركتان : الحركة الصيهونية الإمبريالية وتحالفها الطبيعى مع الاستعمار البريطانى والمصالح الغربية ، والحركة القومية العربية باتجاهها المستقل ، ومن ثم كانت حتمية تعارض وتناقض الحركتين من أول ظهورهما .

وكان اتجاه القومية العربية الطبيعى إلى السعى والتحالف مع الحركة الاشتراكية العالمية ، واتجاه الحركة الصهيونية إلى الارتباط بالإمبريالية العالمية المحدثة ، وهى الإمبريالية الأمريكية ، ووضح ذلك بشكل سافر فى العدوان الإسرائيلى سنة ١٩٦٧ .

وكان أمام الصهيونية من أول الأمر إما مصالحة العرب والتوافق معهم ، وعندئذ يكون مطلبها هو مطلب العرب : الاستقلال ومعاداة

الإمبريالية ، وإما مشاركة الإمبريالية فى مصالحها وأطماعها . وكانت أمام الهستدروت فرصة نادرة ، وهى طريق النضال ضد الرأسمالية ، ولكنها أولا جعلت المبدأ النقابى الذى يضع كل العمال على قدم المساواة بصرف النظر عن الدين أو القومية فى مركز ثانوى ، وأعلت عليه مبدأ القومية الصهيونية ، وهى ثانيا اختارت جانب أصحاب الأعمال والإمبريالية البريطانية على جانب الاتجاهات الاشتراكية . ويفضح مؤسسها « بن جوريون » أهدافها فيقول: «إنى أنتمى إلى هذا الصهيونى الذى يدعو إلى أكبر قدر من السلطة الصهيونية ، سلطة غير محدودة لا يعوقها عائق ، بمعنى أن يسيطر التشريع القومى على العمل اليهودى ، وأن يسيطر التشريع القومى على رأس المال اليهودى ، وأن يسيطر التشريع القومى على وجود الشعب اليهودى ..هذه السلطة القومية التى أطالب بها هى ما أسميه الاشتراكية » .

هذا هو مفهوم الاشتراكية عند بن جوريون ، وهو نفس مفهوم الحزب القومى الاشتراكى الألمانى (النازى) ، فالحركة الاشتراكية الإسرائيلية حركة نازية نصاً وروحاً ، والهستدروت لكى تحقق قيام الوطن القومى مارست التفرقة العنصرية وأبعدت العرب عن المؤسسات

اليـهودية حتى يمكنها أن تسـتوعب المهاجرين اليـهود الجـدد ، ولكن العمـال العرب كانوا أرخص فى أجورهم بدرجة مـذهلة ، وكان رأس المال اليـهودى ، بحكم جـوهره كـرأسمـال يؤثر الأجـور المنخـفضـة ، فـاضطرت الهسـتدروت إلى خـفض مسـتوى أجـور العمـال اليـهود لينافسوا العمـال العرب ، ولكنها من نـاحيـة أخرى عوّضت العمـال اليهود باشتراكات من صناديق تمولها الهستدروت نفسها . وحرّمت إسـرائيل الأحزاب بحكم القـانون . وعملت على تشـغيل اليـهود دون العرب فى المشروعات اليهودية ، وهو مبدأ يؤدى بالعرب وإسرائيل إلى البطالة ، وإلى احـتراف المهن البسـيطة ، وزادت الشـقة بين الحـركة العمـالية العربية فى إسرائيل والحركة العمـالية اليهودية لمعاداة الأولى أسـاسـا للاستعمار والإمبـريالية ، وارتبـاط الهسـتدروت برأس المال اليهودى الأمريكى والبريطانى .

وإذاً فالصهيونية لم تحل المسألة اليهودية نفسها، ناهيك عن حلّها فى الأوساط الغربية حيث يعيش ١٦ مليونا من اليهود خارجها ، وكل ما فعلته الصهيونية هو أنها مدّت نطاق المشكلة اليهودية لتشمل اليهود الذين كـانوا فى فلسطين، والذين وفـدوا إليـهـا بعد قـيام إسـرائيل ، وخلقت دولة جديدة زرعتـهـا زرعـا فى الشـرق الأوسط لتسـتـخدمـهـا

الإمبريالية ضد حركة القومية العربية والحركات الاشتراكية فى العالم العربى.

* * *

الماركسية والصهيونية

فى مقدمة كتاب [(١)] « العداء للسامية والمسألة اليهودية » الذى أسلفنا الإشارة إليه من تأليف ا . ريناب يقدم وليام جلاشر ، وهو يهودى بريطانى ماركسى ، للكتاب فيقول إن العداء للسامية ليس له مصدر إلا متناقضات المجتمع الرأسمالى أو البورجوازى ، وهو ليس إلا نوعا من الاضطهادات العديدة التى فى هذه المجتمعات .

ولكن المجتمع الاشتراكى يلغى الاضطهادات ويقيم أسسه على التكافؤ والمساواة والاشتراكية ، وهو يهدم كافة التناقضات والاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود ، ومن ثم فليست هناك مسألة يهودية فى المجتمع الاشتراكى .

ويرى جالاشر أن اليهودى ينبغى أن يحول جهده لا إلى تأسيس دولة فى فلسطين وطرد أهلها العرب منها واضطهادهم فيها ، بل إلى

(١) " Anti - semitism and the Jewish Question" by I. Rennab.

الانضمام إلى الطبقات المضطهدة الأخرى في المجتمعات التي يعيش فيها اليهود ، وخلق جبهة قوية اشتراكية ضد الرأسمالية والإمبريالية والبورجوازية، وهى النظم التى تقوم على الاضطهادات وتقسيم الطبقات واستغلال المضطهدين .

وفى كتاب « دولة إسرائيل . مركزها وسياساتها » الذى أصدره الاتحاد السوفيتي ، يرى المؤلفان أن الحركة الصهيونية تمثل شكلا من أشكال الإيديولوجية القومية للبورجوازية اليهودية الغنية ، المرتبطة بشكل وثيق بالإمبريالية والاضطهاد الاستعمارى لشعوب آسيا وأفريقيا . إن الصهيونية وقد ربطت نفسها بالرأسمالية الأمريكية والغربية ، وبالتكتيكات الإرهابية اليهودية ، هاجمت الدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وهددت الحركة الليبرالية القومية لشعوب الشرق الأوسط . ولا جدال أن واجب الماركسين يقضى فى هذا الموقف بمساعدة شعوب آسيا وإفريقيا على سحق القوى اليهودية الرجعية.

وتتناقض الحركة الاشتراكية والحركة الصهيونية ، لأن الصهيونية تعتمد فى دعم إسرائيل على فقراء اليهود. وكان هرتزل [(١)] مؤسس

(١) تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) يهودى مجرى المولد ، عمل صحفيا ومراسلا لمجلة Neu Frei من باريس وعاصر القضية المعروفة باسم قضية دريفوس أو « القضية L' Affaire » والتى بسببها قال أنه رأى أن اندماج اليهود فى مجتمعاتهم مستحيل وبدأ يفكر فى إيجاد حل للمشكلة اليهودية ، وفى =

الصهيونية يرى فى البروليتاريا اليهودية المتوفرة فى العالم عنصرا أساسيا من عناصر تكوين إسرائيل ، فبينما يرى تحرير البروليتاريا اليهودية فى العالم بتوطينها فى إسرائيل، ترى الماركسية والاشتراكية أن تحرير البروليتاريا عموما هو فى تحرير المجتمعات من سيطرة

= سنة ١٨٩٦ نشر كتابه « الدولة اليهودية » ولم تكن ثقافته ثقافة يهودية ومن ثم لم يختر فلسطين أرضا للدولة اليهودية ولم يطالب بأن تكون العبرية لغة الدولة ، ولكن حركة عشاق صهيون التي أسلفنا الحديث عنها أصرت فى المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ على اختيار فلسطين ، وتحدث هرتزل عن استعمار قبرص أو العريش أو أوغندا ، ولكن الاجتماع كان عن فلسطين .
وأسس هرتزل صحيفة المؤتمر « Die Walt العالم » والشركة اليهودية للتعمير ، وفاوض السلطان عبد الحميد وبريطانيا وألمانيا وروسيا ، وكتب رؤياه فى كتاب « الأرض القديمة الجديدة » سنة ١٩٠٢ وتركه وصية للحركة ، وعرضت بريطانيا عليه أوغندا ، وقبل هرتزل ولكن اليهود عارضوه ، وكان أقواهم معارضة وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، ولم يتحمل هرتزل صدمة فشله ومات بالقلب سنة ١٩٠٤ ودفن بفينا ونقلوا رفاته سنة ١٩٤٩ إلى القدس بعد قيام دولة إسرائيل .
أما دريفوس فكان ضابطا يهوديا فرنسيا اتهموه بالتجسس لألمانيا وسجن ، ولكنهم اكتشفوا براءته بالصدفة وأثيرت قضيته من جديد وشغلت الرأى العام الفرنسى وكتب أميل زولا إنى أتهم J'accuse سنة ١٨٩٨ ووجه خطابه إلى فيلكس فور رئيس الجمهورية ونشره فى صحيفه الفجر، وقدم المفكرون عريضة لرئيس الجمهورية وقعها ٣٠٠٠ شخص منهم أناتول فرانس ومارسيل بروست تطالب بإعادة النظر فى القضية .. وفى ١٨٩٩ استقدم دريفوس من جزيرة الشيطان وقدم إلى المحاكمة من جديد وبرئ وأعطى وسام الليجيون دونير . (الحفنى)

الرأسمالية والبورجوازية والإمبرايالية .

ويذكر تيودور هرتزل أن اليهود الموسرين سيجدون فى قيام إسرئيل خلاصا من البروليتاريا اليهودية التى سيساعدونها على الهجرة إلى إسرائيل . ويذكر أن التجارب قد برهنت على أن الضغط السكانى اليهودى ينعكس على ردود الفعل ضد يهود الطبقة الوسطى ، لذلك تعمل الصهيونية على إزاحة القطاعات اليهودية الفقيرة من بلادها لإتاحة فرص أكثر أمام الأغنياء لكى يعيشوا حياة هادئة مطمئنة ، فيما لو وقع اختيارهم على البقاء فى بلدانهم الأصلية.

وتؤدى هجرة اليهود الفائضين أيضاً إلى تخفيض نوعين من التنافس الذى يواجهه أغنياء اليهود : التنافس الكامن الذى قد يبرز من جراء قيام قطاع من البروليتاريا اليهودية برفع نفسه إلى مستوى الطبقة الوسطى ، والتنافس المسيحى . فالنوع الأول سوف يحد منه ، إن لم يتم منعه ، كنتيجة للهجرة . أما التنافس الثانى فسوف يتضاءل لأن المسيحيين سيشعرون بالارتياح عندما يخف الضغط اليهودى فى المجتمع . وبناء عليه سوف يشعرون بدرجة أقل بوجود منافسيهم من اليهود ، ويتوقعون فى الوقت نفسه أن يتناقص عددهم طالما ستتتابع

عملية الهجرة ويستمر سيرها [1] .

فهناك إذن تحالف بين الصهيونية والبورجوازية اليهودية والعالمية عموماً ضد البروليتاريا اليهودية بقصد تهجيرها وتخليص المجتمعات منها لصالح البورجوازيتين ، وهو ما يتناقض كل التناقض مع الحركة الاشتراكية العالمية .

ويحاول هرتزل إقناع الرأى العام العالمى بحسنات قيام دولة إسرائيل ، فيقول إن الهجرة البروليتارية اليهودية سوف تؤدى إلى قيام هجرة مسيحية لملء المراكز الشاغرة ، ويقول إن الأسواق اليهودية فى مرحلة متأخرة من مراحل الحركة القومية اليهودية ستصبح تحت تصرف الطبقة الوسطى المسيحية فتضعف المنافسة اليهودية كلما ازداد عدد يهود الطبقة الوسطى الذين تجتذبهم أسواق الدولة اليهودية النامية . هكذا تظهر بوضوح الصلة المباشرة بين إنجاح الفكرة القومية اليهودية وبين مصلحة الطبقة الوسطى المسيحية فى أسواقها الخاصة .

ويقول هرتزل إن زيادة الهجرة اليهودية تزيد الفرص أمام التوظيف والاستخدام المسيحى ، وستسعى العمالة المسيحية لملء

(١) ص ١٦ عوامل تكوين إسرائيل بقلم إنجلينا الحلو منشورات منظمة تحرير فلسطين – مركز الأبحاث .

مراكز العمل اليهودية الشاغرة فى البلدان المسيحية ، وستحول دون هجرة هذه الطاقة إلى بلدان أجنبية سعيا وراء الوظيفة والعمل . وكذلك سوف يحتاج المستوطنون اليهود ، وخاصة خلال المراحل الأولى لنموهم القومى إلى كل من البضائع الاستهلاكية والمنتجة التى يترتب عليهم استيرادها من الأسواق الأوروبية . وهنا يجب الاعتماد على عنصر الطلب هذا فى توسيع الأسواق ، وبالتالى فى إتاحة المزيد من الفرص أمام المسيحيين . وقد يعمد اليهود المستوطنون خلال مرحلة متأخرة من تطورهم إلى توجيه رساميلهم المتراكمة لتوظيفها فى البلدان التى هاجروا منها . ويقول هرتزل بهذا الصدد « سوف يبتهج الرأسماليون اليهود لتوظيف أموالهم فى الأماكن التى يألفون أحوالها السائدة ، وبينما نجد المال اليهودى الآن يتم إخراجه من البلدان بسبب الاضطهاد القائم وإغراقه فى المشاريع الغربية النائية ، فإنه سوف يعود ليتجه مجدداً صوب بلدان العالم الغربى من جراء هذا الحل السلمى ، وسوف يساهم بدوره فى رفع مستوى تلك البلدان التى بارحها اليهود » .

ووعد هرتزل بأن تكون الدولة اليهودية لصالح أوروبا ، وممثلة للحضارة الأوروبية فى الشرق الأوسط ، حيث سيكون اليهود فى إسرائيل جزءاً من السد الأوروبى فى وجه آسيا ، ومركزا طليعيا

للمدنية ضد البربرية [1] ، أى بمثابة معرض قائم دائم لخدمة المصالح الأوروبية[2] .

(هذا التحالف الصهيونى الإمبريالى ، لا يعنى بالنسبة للصهيونية تحقيق دولة إسرائيل فقط . وفى ذلك يقول بن جوريون [3] فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٨ « إننى أعتبر المقدمة الكبرى الرئيسية فى صميم تفكيرنا بأجمعه، لابل فى حركتنا وسياستنا، ما يلى : أن الدولة ليست هدفا فى حد ذاتها ، بل هى وسيلة إلى هدف . والهدف هو الصهيونية [4] ، والصهيونية تعنى دائما توسيع رقعة الأرض ، والغزو والاستيطان، ووسيلتها إلى ذلك الإحياء التاريخى العسكرى، فإذا كانت دولة إسرائيل على الدوام فى حالة حرب ، فإن ذلك يرجع إلى كون إسرائيل بالواقع دولة حرب ، وليس المفهوم المتطور لإنشاء ما يسمى فى إسرائيل بالجندى المستوطن سوى إحدى الوحدات التى تمثل عملية الاستعمار الصهيونى بأجمعها ، يعنى لا تعدو سياسة تجميع المنفيين كونها دعوة لتكثير وحدات المستوطنين الجنود ومضاعفة عددهم » . وقد خاطب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل أعضاء

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥ .
(٤) بن جوريون يتطلع إلى الوراء (بيرلمان نيويورك)

المجلس الصهيوني العام المنعقد في القدس في مارس سنة ١٩٦٤ فقال :

« ينبغي علينا منذ الآن أن نرسم الخطط للمليون الرابع والخامس . من أين ومتى يأتون ، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودي في الشتات ؟ ولكي تتمكن إسرائيل من الاستمرار في تأدية رسالتها يجب أن يكون هناك توسع دائم في سكانها . غير أن المسألة ليست مجرد إيجاد ثلاثة ملايين أو حتى خمسة ملايين يهودي في الدولة ، فمهمتنا لا تنتهي عند هذا الحد ، وهذه ليست نهاية الرؤيا الصهيونية « إن رسالتنا التاريخية تتحقق بالوجود والقوة »[1] . وهكذا تغدو مسألة تحقيق « **الرسالة الصهيونية** » وتأديتها مشروطة بـ « الوجود » و« القوة » ، أي الاستيطان والقوة العسكرية ، وهما اللذان يعتمدان بدورهما على معدل الهجرة .

إن المهمة القومية التي تضطلع بها دولة إسرائيل – ألا وهي جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة في العالم وتهجيرها إلى إسرائيل – إن تلك المهمة تستدعي هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٣٠سنة) ، وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمّن الأحوال الطبيعية لحياة

(١) عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية ص ٣٩ .

هؤلاء السكان من المهاجرين .. ولذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها ، ووضع ثرواتها المادية فى خدمة اليهود فى إسرائيل »[1] .

« النقب وجزيرة تيران وجزيرة صنافير وشبه جزيرة سيناء ومنطقة قناة السويس : إن امتلاك إسرائيل لهذه المناطق سيؤمّن لنا استخداما غير محدود النطاق لخليج العقبة وميناء إيلات ، وسيضع فى خدمتنا الموارد البترولية التى ستمدنا بسبعين ألف طن من البترول سنوياً ، كما سيمكننا من استخدام الإمكانيات التجارية التى تنطوى عليها قناة السويس . إن تلك الإمكانيات يجب أن تدر علينا ما بين ١٠ و ٢٠ مليون دولار سنويا ، بينما سيدر علينا ميناء إيلات ١٠ مليون دولار سنوياً . وإن حربا يجب ألا تدور أكثر من ثلاثة أشهر على أكثر تقدير هى حرب شأنها أن تتفق وتنسجم مع متطلبات إسرائيل الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية . لذا يجب أن يضع الجيش الإسرائيلى خطة يمكن لإسرائيل أن تنهى بها الحرب فى خلال مدة الأشهر الثلاثة »[2] .

---

(١) دولة اسرائيل : ك . ايفانوف . ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ وعوامل تكوين إسرائيل ص ١٠٩

من ذلك نرى أن الفلسفة الاقتصادية للصهيونية فلسفة تتنافى مع المبادئ الاشتراكية التي لا تؤمن بالحرب ولا تقوم على التوسع والغزو . وهى فلسفة تقوم على إخضاع العمال للسيطرة العسكرية ، ونواتها « الجندى – العامل » ، ويتم بواسطتها تحويل البروليتاريا اليهودية إلى وضع مستقر ، أى تصفية التصورات الاشتراكية فى عقول الطبقات اليهودية العاملة . وفى الاشتراكية يكون دور ا لتجديد الاجتماعى من نصيب طبقة خاصة هى البروليتاريا ، بينما يبدو أن هذا الدور قد أعطى للهستدروت فى الصهيونية التطبيقية أو ما دعوناه بالاشتراكية العنصرية . فالهستدروت كطبقة خاصة فى حد ذاتها ، برزت بمثابة العمود الفقرى لاقتصاد الحركة الصهيونية وطليعة البناء الصهيونى . ويعرف بن جوريون الهستدروت كالآتى :

« ليست الهستدروت نقابة عمالية ، ولا هى حزب سياسى ، ولا هى تعاونية أو جمعية لتبادل المنفعة ، مع أنها تقوم بنشاط فى جميع هذه الحقول . إنها أكثر من كل ذلك . الهستدروت هى اتحاد شعب يقوم ببناء موطن جديد ودولة جديدة وشعب جديد ومشاريع ومستوطنات جديدة ، وحضارة جديدة . إنها اتحاد للمصلحين الاجتماعيين لا تعتمد جذوره إلى بطاقة العضوية الخاصة ، بل إلى المصير المشترك

والمهمات المشتركة لجميع أعضائها فى الحياة وفى الموت »[1] .

وهكذا نجد أن الهستدروت تمثل العنصر الأساسى فى النظام الاقتصادى الناشئ للدولة الصهيونية ، فهى تمثل الطبقة التى تزود ذلك النظام بإطاره التركيبى . وعلاوة على ذلك تعكس الهستدروت عنصر القوة الذى يسيطر على إسرائيل الآن ، وقد يتوصل إلى حكم الدولة اليهودية . ولكن الحكومة مع ذلك تحتل المرتبة الأولى . وتسيطر على النظام الاقتصادى والحكومة معا الاعتبارات العسكرية ، وعندئذ تبدو الاشتراكية المطبقة فى الهستدروت والمزارع الجماعية الإسرائيلية (الكيبوتز) بمثابة أداة لخدمة الأغراض التوسعية لإسرائيل . ورغم ما يبدو من وجود عدد من الأحزاب السياسية فى إسرائيل ، وما يظهر من ذلك من دلائل ديمقراطية ، فإن الهستدروت تمثل الجهاز التوتاليتارى (جهاز الحزب الواحد) ، الذى يضم كل الأحزاب ويسيطر على الفكر الأيديولوجى للحكم فى إسرائيل ، فالهستدروت إشتراكى الشكل ، عنصرى المضمون : إنه جهاز نازى آخر لخدمة أغراض الدولة التوسعية العنصرية والعسكرية .

إن الفلسفة الاقتصادية الصهيونية فلسفة ضد الاشتراكية .



---

(١) الحركة العمالية فى إسرائيل ص ١٨٣ وعوامل تكوين إسرائيل ص ١٣٥ .

بـرونـو بـاور

ولقد كتب **كارل ماركس** فى المسألة اليهودية . وكان من الطبيعى أن يكتب فيها ، فسيجموند فرويد [1] ، المفكر النفسى اليهودى ، كتب فيها ، وكذلك **أينشتين** المفكر العلمى .

وكارل ماركس ، من أصل يهودى ، وداجوبيرت رونز مترجم مقال **المسألة اليهودية** لكارل ماركس ، انتقد ماركس بشدة ، لأنه رغم يهوديته ، تحامل على اليهود . والمسألة اليهودية مسألة عالمية ، جرّت إلى الكتابة فيها كثيراً من المفكرين ، ومنهم **برونو باور** .

وباور [2] مفكر ألمانى شغلته النواحى الدينية وكتب كثيراً فى المسيحية ، وهو ملحد ويروى أن المسيحية ديانة مفهومها هيلينى (أى مفهوم يستمد أصوله الفكرية من الثقافة اليونانية) وليس يهوديا . وكان باور من الهيجيليين ، وفصلته الحكومة الألمانية من منصب الأستاذية فى الجامعة لآرائه الإلحادية .

وكتب باور فى **المسألة اليهودية** ، وتساءل عن حقيقة الدعوة اليهودية التى تطلب تحرير اليهود من الاضطهاد السياسى ، و من

---

(١) Moses and Monotheism : Sigmund Freud.

ترجمة دكتور عبد المنعم الحفنى بعنوان : (النبى موسى ورسالة التوحيد) .

(٢) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث .

الحرمان من الحقوق السياسية فى ألمانيا .

ويرى باور أن الاضطهاد الذى يعانيه اليهود ، هو اضطهاد يعانيه المجتمع الألمانى كله ، لأن الدولة مسيحية الجوهر ، وينبغى فصل الدولة عن الدين ، وتأمين علمانية الدولة ، وأن يعمل اليهود على نقد المسيحية واليهودية معا ، وتخليص الدولة منهما : لتقوم الدولة العلمانية مثل الولايات المتحدة الأمريكية .



كتاب ماركس

وانتقد ماركس كتاب باور ، لأن المشكلة ليست مشكلة الديانة المسيحية أو اليهودية ، ولكنها مشكلة الاضطهاد الاجتماعى المتمثل فى سيطرة الرأسمالية والبورجوازية على الفكر السياسى وبناء الدولة ، وعندئذ يكون واجب المواطن فى الدولة الكفاح من أجل إلغاء سيطرة المال على الدولة وعلى المواطن . ويرى ماركس أن مضمون الديانة اليهودية الضرورة المادية والمتاجرة ، وأن إله اليهود الدنيوى هو المال . وتحرير اليهود يكون بتحريرهم من المال ، من اليهودية ، أى يكون بتحرير المجتمع من سيطرة المال والمتاجرة ، وتنظيم المجتمع بحيث تُلغَى الشروط السابقة لقيام المتاجرة بالربا ، وبالتالى تلغى إمكانية

المتـاجرة بالربا : إن هذا الإلغـاء يـجعل وجـود اليـهودى واليـهـودية مستحيلا . والمال هو جوهر المجتمعات الرأسمالية والبورجوازية وحياة الإنسان وعمله ، عمله الذى اغترب عنه وهذا الوحش هو الذى سيطر على الإنسان الآن ويستعبده .

ألغوا هذه المتاجرة ، وقوّضوا سيطرة المال على المجتمعات ، تنحل المسألة اليهودية بالنسبة لليهود ، وبالنسبة للمجتمعات التى تشكو من اليهود كظاهرة مرضية ، والتى من أجلها قامت حركة العداء للسامية واضطهاد اليهود .

هذا هو موجز فكر كارل ماركس ، ودلالاته هي نفس الدلالات التى تحدثنا عنها فى الحل السوفيتى للمسـألة اليهودية ، وفى تصـادم الاشتراكية والصهيونية : أن على المجتمعات الأوروبية أن تقبل اليهود فيما بينها ، وأنه لا مجال للحل الصهيونى لأنه حل توسعى عسكرى إمبريالى ، وأن على المجتمع الدولى أن يتخلص من سيطرة الإمبريالية والرأسمالية والبورجوازية ، ففى تخلصه منها تحرير لنفسه من كافة الاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود للمجتمعات المتمثل فى سيطرة المال – إله اليهود الدنيوى – على هذه المجتمعات .

ولقد كتب ماركس « عن المسألة اليهودية » سنة ١٨٤٤ ، وظهر مقاله

فى إحدى الصحف ، وكان وقتها يعمل مساعدا لرئيس تحريرها . وكانت آراء ماركس لم تتبلور بعد فى نظريته الاشتراكية ، ولكنه كان بسبيله إلى الاستقرار نهائيا . وكتب لينين عن مقالات ماركس فى مقال بعنوان « ببلوجرافيا الماركسية » يصف بحوث ماركس التى نشرها سنة ١٨٤٢ يقول :

« هنا نلحظ علامات تحول ماركس من المثالية إلى المادية ، ومن الديموقراطية الثورية إلى الاشتراكية » وتم هذا التحول بشكل حاسم خلال اشتغاله بالجريدة السابقة . وبينما نجد أن ماركس فى مقاله عن المسألة اليهودية ليس هو بعد ماركس الذى كتب البيان الاشتراكى سنة ١٨٤٨ ، فإنه مع ذلك كان قد بلور مفهومه عن المادية التاريخية ، ورأى ماركس أن حل المسألة اليهودية لا يمكن أن يتحقق إلا فى نظام اجتماعى أرقى من النظام الذى كان سائدا فى زمانه ، والذى حلله فيما بعد فى كتابه « رأس المال » .

وكتب ماركس مقاله فى فترة تحول ألمانيا من الإقطاع إلى الرأسمالية ، وأدرك ماركس وظيفة اليهود الاجتماعية والتجارية فى المجتمع الإقطاعى ، وأدرك الرابطة المهمة التى تربط اليهود بالطبقة البورجوازية الصاعدة ، والتى كانت تناضل فى ذلك الوقت للوصول إلى السلطة ، وأدرك أن المجتمع البورجوازى الجديد فى ألمانيا يقوم

على وظيفة اجتماعية ظل اليهودى يمارسها لقرون عديدة ، واستخلص من كل ذلك أن الوظيفة الاجتماعية ، لليهود قد أبقت عليهم أحياء طوال كل هذا الزمن ، مع أنهم كما يقول توينبى من بعد ، شعب مندثر ، شأنهم شأن الأشوريين والأموريين والكنعانيين والكلدانيين ، وكانت وظيفة اليهود هذه وظيفة لها أهميتها فى مجتمعات الماضى ، واستمدوا منها بعضا من سمات هذه المجتمعات الأيديولجية المميزة لها ، الأمر الذى جعل ماركس يقول قولته الشهيرة « إن اليهودية عاشت ليس رغما عن التاريخ ، لكن بسبب التاريخ » .

ويعنى هذا الكلام أن الظروف الرأسمالية والبورجوازية أتاحت لليهود فرصة السيطرة على المجتمعات عن طريق المال والتملك ، وحيث توجد الرأسمالية لابد أن توجد اليهودية ، لأن جوهر اليهودية هو المتاجرة بالمال والربا . لذلك فنحن نرى أن تمرد اليهود بالاتحاد السوفيتى الآن ، وطلبهم للهجرة منه ، ومن دول أوربا الشرقية ليس سبب سوى أن اليهودى لا يمكن أن يوجد إلا حيث توجد الرأسمالية ، الأمر الذى بلغ باليهود الذين رفض الاتحاد السوفيتى تهجيرهم أن يشرع بعضهم إلى اختطاف الطائرات ، وأدى ببعضهم إلى المحاكمات وإلى التآمر لقلب نظام الحكم .

وإذا كان ماركس قد طالب بإلغاء الملكية تماما ، فنحن لسنا مع

مـاركس . نحن اشتـراكيـون ، ولكن للاشتراكية أعلاما كثيرة ، ولقد اخترنا طريق الاشتراكية العربية الإسلامية التـى تناسب ظروفنا والمرحلة الحضارية التى نحياها ، وتلتزم بثقافتنا الوطنية وديننا ، ومـع ذلك نحن مـع مـاركس أن على كل مـجتمـع أن يلتزم باليهود الموجودين فيه ، ونرى لـذلك أن تهجيـر الاتحـاد السـوفـيتى لليهود ، أو سمـاحه بتهجيرهـم ، تكتيك يتناقض مع الاستراتيجية الاشتـراكية ، وأخلى الاشتراكية من مضمونها ، ويثبت أنه لم يستطع أن يعيد تعليم وتربية المواطن السـوفيتى اليهودى ، ويصـهر اليهود فـى الاتحاد السوفيتى ، ويقنعـهم بالتخلى عن المضـمون والسـمت اليهوديين ، ولو فعل الاتحاد السوفيتى والتزم بما يقـوله مـاركس لما كـانت هناك هـجـرة يهودية منه ومن دول أوروبا الشرقية .



المسألة اليهودية

كارل ماركس

الجزء الأول

يهود ألمانيا يطالبون بالتحرر ، فبأى تحرر يطالبون ؟ إنه التحرر المدنى والسياسى .

ويرد عليهم « برونو باور »[1] بأنه : لا يوجد بألمانيا متحررون سياسيا ، ونحن ، الذين لسنا يهودا ، لسنا أحرارا ، فكيف نستطيع أن نحرركم ؟ إنكم ، أيها اليهود لأنانيون حين تطالبون لأنفسكم ، لكونكم يهودا ، بتحرر خاص ، وكان يجب عليكم بالأحرى أن تعملوا ، بوصفكم ألمان ، على تحرير ألمانيا سياسيا ، وأن تعملوا ، بوصفكم بشرا ، على تحرير الجنس البشرى . وكان يجب عليكم أن تنظروا إلى هذا النوع المتميز من الاضطهاد الذى هو اضطهادكم ، ليس بوصفه شذوذا عن القياس ، وإنما بوصفه تأكيدا لهذا القياس .

ويتساءل « باور » : أم أن اليهود يطالبون ببساطة أن يوضعوا على قدم المساواة مع رعايا الدولة المسيحيين ؟ وفى هذه الحالة فإنهم يعترفون بالدولة المسيحية . باعتبارها الدولة المشروعة ، ويعترفون

(١) المسألة اليهودية لبرونوباور

بأنهم نظام من نظم الاستعباد السائدة . وحينئذ نسألهم لماذا لا يرضون بنيرهم الخاص في الوقت الذي يرضون فيه بالنير العام ؟ ولماذا ينبغي أن يبدي الألمان اهتماما بتحرير اليهود ، ما دام اليهود لا يهتمون بتحرير الألمان ؟

« إن الدولة المسيحية ليس فيها إلا الامتيازات ، واليهودي نفسه في هذه الدولة يتمتع بامتياز وهو كونه يهوديا . وهو كيهودي له الحقوق التي ليست للمسيحيين . فلماذا يطالب اليهودي بحقوق لا يملكها ، حقوق يتمتع بها المسيحيون وحدهم لكونهم مسيحيين في دولة مسيحية ؟

« واليهودي بمطالبته بالتحرر من الدولة المسيحية ، يطلب أن تتخلى الدولة المسيحية عن تحاملها الديني ، فهل يتخلى ، هو اليهودي عن تحامله اليهودي ؟ وإن كان الجواب بالنفي فهل يحق له إذن أن يطالب شخصا آخر بالتنازل عن دينه ؟

« إن الدولة المسيحية ، بحكم جوهرها كدولة مسيحية ، لا تستطيع أن تحرر اليهودي » . ولكن « باور » يضيف « أن اليهودي بحكم جوهره كيهودي ، لا يستطيع أن يتحرر ما بقيت الدولة المسيحية وما بقي اليهودي يهوديا ، فكلاهما لا يمكن أن يصلح لمنح التحرر ، والآخر لتلقيه .

« إن الدولة المسيحية لا تستطيع أن تقف من اليهود إلا موقف الدولة المسيحية ، أى الدولة التى فى استطاعتها أن تمنح امتيازات ، وهى استنادا إلى إمتيازها هذا ، تسمح بعزل اليهودى عن سائر رعاياها . ولكنها تجعله يحس بثقل الجماعات التى عزلته عنها ، وبشكل حاد خصوصا لأنه يمثل المعارضة الدينية فى مواجهة الديانة السائدة . ولكن اليهودى ، رداً على ذلك ، لا يستطيع إلا أن يقف من الدولة موقف اليهودى ، أى موقف الأجنبى ، فهو يعارض القومية الحقيقية بقوميته الوهمية ، ويضاد القانون الحقيقى بقوانينه المتخيلة ، ويظن أن انفصاله عن سائر البشرية له ما يبرره ، ولا يشارك فى حركة التاريخ ، كمسألة مبدأ ، وينتظر ليحقق لنفسه مستقبلا ليس بينه وبين مستقبل الإنسانية شئ مشترك ،ويعد نفسه فردا من الشعب اليهودى ، والشعب اليهودى عنده هو الشعب المختار .

« وإذن فبأى حق تطالبون أيها اليهود بالتحرر ؟ أهو بسبب دينكم ؟ إن دينكم هو العدو اللدود لدين الدولة . فهل بسبب أنكم مواطنون فى الدولة ؟ إن الدولة لا يوجد بها مواطنون حقيقيون . فهل بوصفكم بشرا ؟ إنكم لستم بأكثر بشرية من أولئك الذين تستنجدون بهم .



الدين والدولة

وبعد أن نقد « برونو باور » الأوضاع القائمة والحلول المقترحة لها ، تناول المسألة اليهودية من زاوية جديدة ، وتساءل : ماهى طبيعة اليهودى الذى يسعى إلى التحرر ، وما هى طبيعة الدولة التى ستحرره؟

وأجاب « باور » بأنه نقد العقيدة اليهودية ، وحلل التعارض الدينى بين اليهودية والمسيحية ، وفسّر لنا شخصية الدولة ، وفعل ذلك كله بجرأة ووضوح وإتقان وعمق ، وبعبارة قد تميزت بالدقة والمتانة وحافلة بالمعنى .

فكيف يقدم « باور » حلّه لمسألة اليهود ؟ إن صياغته للمسألة نفسها تتضمن الحل ، فتحليل المسألة اليهودية يمدنا بحل ، ويمكن تلخيص حلّه كالآتى :

« يجب أن نحرر أنفسنا أولا قبل أن نستطيع أن نحرر الآخرين ، وإن أشد أشكال التعارض بين اليهودى والمسيحى لهو التعارض الدينى ، فكيف نحل التعارض الدينى ؟ والجواب بجعله مستحيلا ، وكيف نجعل التعارض الدينى مستحيلا ؟ والجواب بإلغاء الدين . ومنذ اللحظة التى لا يعود اليهودى والمسيحى يريان فى دين كل منهما إلا

درجات متفاوته من درجات تطور العقل الإنسانى ، وإلا جلود ثعابين قد ألقى بها التاريخ ، لن يجد كلاهما نفسه فى علاقة دينية فى مواجهة الآخر ، وإنما سيجدان نفسيهما فى علاقة نقدية علمية ، يؤلف العالم فيها بينهما ، فى وحدة واحدة ، وتنحل من خلالهما التناقضات فى العالم بالعلم نفسه .

وتقوم أمام اليهودى الألمانى خاصةً مسألة قصور وجود تحرر سياسى فى دولة من المعروف أنها مسيحية ، ولكن « باور » يرى أن للمسألة اليهودية من وجهة نظره أهمية عامة مستقلة عن ظروف تواجد اليهودى فى ألمانيا . وهذه الأهمية العامة هى مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة ، ومسألة التناقض بين الارتباطات الدينية وبين التحرر السياسى ، وعندئذ يصبح التحرر من الدين شرطا يفرض نفسه على السواء ، على اليهودى الذى يطالب بالتحرر السياسى لنفسه ، وعلى الدولة التى من واجبها أن تحرره وتحرر نفسها .

ويقولون ، واليهودى نفسه يقول « حسن جدا ، لكن اليهودى لا يجب أن يُحَرر لأنه يهودى ، وليس لأنه صاحب مبادئ أخلاقية متفوقة . والأصح أن اليهودى سيقف إلى جانب المواطنين الآخرين ويكون واحدا منهم رغم أنه يهودى ويريد أن يظل يهوديا ، ويعنى ذلك أنه يهودى وسيظل يهوديا برغم أنه مواطن يعيش فى ظروف إنسانية

عظيمة : وطبيعته المحدودة كيهودى تنتصر دائما فى النهاية ، حتي على التزاماته الإنسانية والسياسية ، وتبقى الفكرة الخاطئة ، حتى مع أنها تخضع لمبادئ عامة . ولكنها إذا كانت تبقى ، فإنها إذن تُخضع كل ما عداها ..

« إن اليهودى بوسعه أن يبقى يهوديا فى الحياة السياسية بمعنى سوفسطائى فقط ، في الظاهر فقط . وبالتالى فإن كان يريد أن يبقى يهوديا فإن هذا الظاهر يصبح واقعا وينتصر ، ويعنى هذا أن حياته فى الدولة لن تكون إلا مظهرا ، وأنها استثناء من الواقع والقاعدة » .

ولننظر من ناحية أخرى كيف يحدد « برونو باور » مهمة الدولة حيث يقول :

« لقد قدمت لنا فرنسا مؤخرا [١] فيما يتعلق بالمسألة اليهودية ، وكما تفعل من ناحية أخرى فى كل المسائل السياسية الأخرى ، مشهدا من مشاهد الحرية فى الحياة . ولكن فرنسا تخرق حريتها فى القانون وتعلن هذه الحرية مجرد مظهر ، فى حين أنها من الناحية الأخرى تكذب قانونها الحر بما تمارس من أعمال » .

(Judenfrage, p . 64)

(١) مناقشات مجلس النواب لسنة ١٨٤٠ .

« إن الحرية العامة فى فرنسا لم تعلن بعد كقانون ، وكذلك المسألة اليهودية لم تحل هناك ، لأن الحرية القانونية التي تجعل كل المواطنين متساويين ، مقيدة فى الحياة التى ما تزال الامتيازات الدينية تحكمها وتسيطر عليها . وأيضا لأن نقص وجود الحرية فى الحياة الواقعية ينعكس فى القانون ويرغمه على التمييز بين المواطنين الأحرار فى طبيعتهم ، فتقسمهم إلى مضطهِدين ومضطهَدين » .

(Judenfrage, p. 65)

وإذن فمتى تُحَل المسألة اليهودية بالنسبة لفرنسا ؟

« إن اليهودى سيكف عن كونه يهوديا ، إذا كان قانونه لا يحول بينه وبين ممارسته واجباته تجاه الدولة ونحو مواطنيه ، مثلا إذا ذهب إلى جلسات مجلس النواب يوم السبت وشارك فى مناقشاته العامة . وعلى كل فالواجب أن تُلغَى كل الامتيازات الدينية ، ويعنى ذلك إلغاء الاحتكارات اتي تحصل عليها الكنائس ، فإذا كان بعض الناس يعتقدون ، أو إذا كانت الأغلبية الساحقة منهم تعتقد فى واجبهم تجاه تأدية الفروض الدينية ، فتأديتهم لهذه الفروض يجب أن يُمنَح لهم ، على اعتبار أنه أمر من أمورهم الخاصة تماماً

(Judenfrage P. 65)

« ولن يكون هناك دين عندما لا يكون هناك دين له امتيازات . جرّدْ الدين من قوته ، بوصفه شيئا متميزا ، يصبح لا وجود له » (Judenfrage. p 66) وكما أن السيد « مارتن دى ثور » ، أحس أن الاقتراح بإغفال ذكر يوم الأحد فى القانون ، هو إعلان بأن المسيحية لم يبق لها وجود ، فإنه يمكن كذلك استجابةً لهذا المبدأ نفسه ، الإعلان بأن قانون السبت بمثابة إعلان بأن اليهودية قد قضى عليها .

(Judenfrage p, 71)

وإذن « فبرونو باور » يطالب من جهة بأن يتخلى اليهودى عن اليهودية ، والإنسان عموما عن الدين كى يحقق لنفسه التحرر السياسى . ومن جهة أخرى ، وهذه نتيجة منطقية ، فإن الإلغاء السياسى للدين يعنى إلغاء الدين بوصفه هذا . والدولة التى تعتنق الدين تعد دولة لم تبلغ بعد مرتبة الدولة الحقيقية الواقعية . « والواقع أن الفكرة الدينية تقدم فعلا للدولة ضمانات . ولكن لأية دولة ؟ لأى نوع من أنواع الدول ؟ » .

(Judenfrage. P 97)

بين اليهودية والمسيحية

إننا كما رأينا هنا نجد أن « باور » لا ينظر إلى المسألة اليهودية من جانب واحد ، فلا يكفى أن نسأل : من الذى يجب أن يقوم بالتحرر ، ومن الذى يجب أن يتحرر ؟ فعلى النقد أن يجيب على سؤال ثالث وهو : ما هو نوع التحرر المقصود ؟ وأية شروط يستوجبها هذا النوع من التحرر ؟ وليس إلا تحليل التحرر السياسى نفسه هو الذى يقدم تحليلا نهائيا للمسألة اليهودية ، وحلها الصحيح فى موقعها من « المسألة العامة لعصرنا » .

ولأن « باور » لا يرفع المسألة إلى هذا المستوى فإنه يقع فى متناقضات ، وهو يشترط شروطا لا تقوم على أساس من جوهر التحرر السياسى ، ويعالج مسائل لا تدخل فى القضية التى يبحثها ، ويحل قضايا لا تمس المسألة التى يعالجها . وعندما يقول « باور » عن خصوم التحرراليهودى « إن خطأهم هو افتراضهم أن الدولة المسيحية هى وحدها الدولة الحقيقية ، وأنها لا تخضع للنقد نفسه الذى يتعرض له اليهود (Judenfrage p. 3) ، نجد أن خطأ « باور » يتمثل فى إخضاعه « الدولة المسيحية » وحدها للنقد ، وليس « الدولة عموما » ، وفى فشله فى تحرى أمر علاقة التحرر السياسى بالتحرر الأكبر للبشرية ، حتى أنه يقدم شروطاً لا يمكن تفسيرها إلا بخلط غير نقدى

بين التحرر السياسي والتحرر الإنساني عامة . فإذا كان « باور » يسأل اليهود : هل لكم الحق ، ووجهة نظركم على ما هي عليه ، في المطالبة بالتحرر السياسي ؟ فإننا نسأل على العكس : هل لبطل التحرر السياسي الحق في مطالبة اليهود بإلغاء اليهودية ، ومطالبته الإنسانية بإلغاء الدين ؟ »

إن المسألة اليهودية تنهض كمشكلة بصورة تختلف من دولة لأخرى ، باختلاف الدولة التي يعيش فيها اليهودى ، ففي ألمانيا حيث لا توجد دولة بالمعنى السياسي ، أى دولة من حيث هي دولة ، نجد المسألة اليهودية عبارة عن مسألة تتعلق بالديانة فقط ، ونجد أن اليهودى يقف موقفا يتعارض دينيا مع الدولة التى تعتقد فى المسيحية كأساس لها . مثل هذه الدولة دولة لاهوتية مغرقة فى لاهوتيتها exbrofesso ، وعندما نوجه النقد لها فإن النقد ينهض فى المحل الأول ضد اللاهوت . وبما أن الدولة هنا فيها المسيحية واليهودية معا ، فالنقد سيوجه للاثنتين ، للاهوت المسيحى واللاهوت اليهودى . ورغم أننا نكون في الحالتين داخل نطاق النقد إلا أننا كذلك لا نخرج عن نطاق نقد اللاهوت .

اليهودية والدستور

أما فى فرنسا حيث الدولة دستورية ، فالمسألة اليهودية هناك تتخذ شكل النظام الدستورى ، أى شكل عدم اكتمال التحرر السياسى . ولأن الدولة الفرنسية ما تزال تحتفظ لنفسها بمظهر دينى ، ولو أنه مظهر تافه متناقض لما يسمى « دين الأغلبية » ، فإن اليهود فيها يظل وضعهم إزاء الدولة هو نفس وضع المعارضين للدين واللاهوت .

ولكن المسألة اليهودية لا تفقد مدلولها اللاهوتى إلا فى دول أمريكا الشمالية الحرة ، ولا تتخذ الشكل العلمانى إلا هناك ، أو على الأقل فى بعض هذه الدول . ولا تتضح علاقة اليهودي ، وبصورة عامة علاقة الإنسان المتدين ، بالدولة ، فى كل صفاتها وخصائصها ، إلا حيث توجد الدولة السياسية فى شكلها التام . وتحليل هذه العلاقة يكف عن أن يكون لاهوتيا حالما تكف الدولة عن الوقوف من الدين موقفا لاهوتيا ، ومنذ اللحظة التى تستبدل فيها الدولة هذا الموقف الدينى بموقف سياسى ، فحينئذ يتحول النقد إلى نقد الدولة السياسية . وعند هذه النقطة ، حيث تكف المسألة عن أن تكون لاهوتية ، يكف نقد باور عن أن يكون نقدا .

« لا يوجد فى الولايات المتحدة دين للدولة ، ولا يوجد بها دين

أعلنته الأغلبية لنفسها ، ولا تتفوق هناك عقيدة على عقيدة ، فالدولة مستقلة عن كل الأديان » . بل تتكون أمريكا الشمالية من ولايات « لا يفرض دستورها عقائد دينية ، ولا ينص على ممارسة عبادة من العبادات كشرط للامتيازات السياسية » . ورغم ذلك « فالاعتقاد فى الولايات المتحدة أن الإنسان الذى لا دين له هو إنسان لا يمكن أن يكون شريفا » . ومع ذلك تظل أمريكا الشمالية بلادا ذات نزعة دينية كما يجمع على ذلك بومون وتوكفيل والإنجليزى هاملتون . على أن دول أمريكا الشمالية لا تخدمنا إلا كمثال . والمسألة : ما هى علاقة التحرر السياسى الكامل بالدين ؟ فإذا كنا فى بلاد التحرر السياسى الكامل لا نجد الدين فقط ، وإنما نجد كذلك « وجوده الجديد القوى » فإن ذلك ليدل على أن وجود الدين لا يتعارض مع اكتمال الدولة ، ولكن حيث أن وجود الدين هو وجود النقص ، فإن أصل هذا النقص لا يمكن أن يبحث عنه إلا فى جوهر الدولة نفسه . ونحن لم نعد نرى العقل فى الدين ، بل نرى أنه ظاهرة علمانية ، ولهذا نفسر الضيق الذهنى الدينى للمواطنين الأحرار بضيقهم الذهنى العلمانى . ونحن لا نطلب منهم أبداً أن يلغوا حدودهم الدينية من الوقت الذى يلغون فيه حدودهم العلمانية ، فنحن لا نحول المسائل العلمانية إلى مسائل لاهوتية بل إننا نحول المسائل اللاهوتية إلى مسائل علمانية . وبعد أن انحل

التـاريـخ لمدة طويلة من خـلال الوهم سنحل نحن الوهم في ضـوء التاريخ . إن مسألة علاقات التحرر السياسي بالدين تصبح بالنسبة إلينا مسألة علاقات التحرر السياسي بالتحرر البشري .

ونحـن ننقـد الضـعف الديني للدولة السـيـاسـيـة ، بنقـد الدولة السيـاسـيـة ، بصـرف النظر عن نواحي ضـعـفـها الدينيـة في بنائها العلمـاني . ونحن نضـفي على التناقض بين الدولة وبين أي ديـن من الأديان ، وليكن اليهودية مثلا ، تعبيراً إنسانيا يكشف التناقض بين الدولة والدين وعناصر علمـانيـة مـعينة ، وبتـحـويل التناقض بين الدولة والدين بصورة عامة إلى تناقض بين الدولة ومقوماتها بصورة عامة .

والتـحـرير السـيـاسي للإنسـان اليـهـودي وللإنسـان المسـيـحي ، والإنسان المتدين عموما ، إنما هو تحرير الدولة من اليهودية والمسيحية والدين عـمـومـا . والدولة بشكلهـا الخاص وبالنمط الخـاص بجـوهـرهـا بوصفها دولة ، تتـحـرر من الدين بتـحـررها من دين الدولة ، أي بعـدم اعترافـها بأي دين ، وبتـأكيدها ذاتها بشكل مـحض ، بوصـفـهـا دولة فقط . والتـحـرر السـيـاسي من الدين ليس هو التـحـرر بصـورة مطلقة وكليـة مـن الـديـن ، لأن التـحـرر السـيـاسي هو النمط المطلق الكلي للتحرر الإنساني .

التحرر السياسى والتحرر الإنسانى

تتجلى حدود التحرر السياسى فى واقع إمكان تحرر الدولة من العقبات التى تصادفها دون أن يستطيع الإنسان أن يتحرر من الدولة ، وإمكانية أن تكون الدولة حرة دون أن يكون الإنسان فيها حراً . «باور » يسلم هو نفسه ضمنيا بهذا ، بربطه التحرر السياسى بهذا الشرط ، حيث يقول : « وإذ يجب إلغاء كل الامتيازات الدينية . فيجب كذلك إلغاء الاحتكارات التى تمثلها الكنيسة المتميزة ، إذا كان البعض ، أو حتى الغالبية الكبرى ، ما يزال يعتقد فى وجوب ممارسة الفروض الدينية ، فيجب أن يكون لهم حق ممارسة هذه الفروض بوصفها شأناً من شئونهم الخاصة تماما » ، فالدولة تستطيع أن تكون قد تحررت من الدين ، حتى ولو كانت الغالبية الكبرى من الناس فيها ما تزال تؤمن بالدين ، أى أن إيمانها به يكون مسألة خاصة بهم ومن شئونهم البحتة .

ولكن موقف الدولة ، وخاصة الدولة الحرة ، إزاء الدين ، ليس إلا موقف الناس سكان الدولة إزاء الدين. ولكن الإنسان عندما يتحرر من عقبة ما ، فإنه يتحرر بأن يرتفع فوق هذه العقبة ، بصورة مجردة غير كاملة وجزئية . وهو يتحرر من جهة أخرى عن طريق الدولة ، بأن يتحرر سياسيا ، وهو يتحرر بواسطة وسيط هو فى الواقع وسيط

ضروری . وأخيراً فالإنسان حين يعلن نفسه ملحدا ، بواسطة الدولة أى حين يعلن أن الدولة دولة ملحدة ، يعنى أنه ما يزال محددا من وجهة النظر الدينية ، لأنه لا يعترف بأنه ملحد إلا عن طريق الدولة أى الوسيط الذى يتوسط بين الإنسان وبين حريته . وكما أن المسيح هو الوسيط الذى يحمّله الإنسان كل ما يتخيله فى نفسه من ألوهية ، وكل ما يعتقده لنفسه من حدود دينية ، فكذلك الدولة ، فهى الوسيط الذى يحمّله الإنسان كل إنسانيته ، وكل ما يعتقده لنفسه من حدود إنسانية .

إن التفوق السياسى للإنسان علي الدين يدخل ، عموما ، ضمن جميع سوءات التسامى السياسى ، فالدولة ، بوصفها دولة ، تلغى الملكية الخاصة مثلا . ويصدر الإنسان قرارا سياسيا بإلغاء الملكية الخاصة ، من اللحظة التى تقرر فيها أن حقوق الإنسان فى أن يمارس الانتخاب ، وأن ينتخبه غيره ، لا ترتبط بالضرائب التى يدفعها من يمارس عملية الانتخاب ، كما يقرر ذلك فى عدد كبير من ولايات أمريكا الشمالية . ويفسر « هاملتون » ذلك تفسيرا صحيحا من وجهة النظر السياسية ، فيقول « لقد انتصرت الجماهير على الملكية وعلى الثورة » . ثم ألا تكون الملكية الفردية قد ألغيت فعلا حين يكون الذى لا يملك هو المشرّع الذى يضع القوانين لذلك الذى يملك ؟ إن الضريبة

على حقوق الترشيح والانتخاب هي آخر الوسائل السياسية للاعتراف بالملكية الفردية .

ولكن إلغاء الملكية الفردية سياسيا ، لا يلغي الملكية الفردية نفسها ، ولكنه يفترضها أيضا . إن الدولة تلغي على طريقتها فوارق النسب والطبقية والثقافة والعمل الخاص ، بإعلانها أن النسب والطبقية والثقافة والعمل الخاص فوارق غير سياسية ، وأن كل فرد من الشعب بصرف النظر عن هذه الفوارق يتمتع على قدم المساواة بالسيادة الشعبية .

ومع ذلك فالدولة تترك الملكية الخاصة والثقافة والعمل الخاص تعمل على طريقتها ، أي من حيث هي ملكية خاصة وثقافة وعمل خاص . وهي إذ تتركها موجودة تعي كونها دولة سياسية ولكنها حين تغلب كليتها تعارض هذه العناصر . وعلى ذلك يكون هيجل [1] صحيحا حين يحدد العلاقة بين الدولة السياسية والدين فيقول « لكي تستطيع الدولة أن توجد في شكل واقع واع وأخلاقي للعقل ، عليها أن تتميز عن

---

(١) هيجل : فردريش هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف ألماني يعتبر من الفلاسفة المحوريين ، حيث يبدأ به الفكر الحديث ، والحقيقة أن الفكر من بعد هيجل هو معه أو ضده ولا ثالث له . وبعد هيجل قامت مدرستان - المدرسة اليمينية والمدرسة اليسارية ، وماركس تتلمذ على المدرسة اليسارية .

شكل السلطة والإيمان . ولكن هذا التميز لا يظهر إلا بمقدار نجاح العنصر الكنسي نفسه في الفصل بين نفسه وبين الدولة . ولم تكتسب الدولة فكرة الشمول وشكلها ، وأن توجد ، إلا على هذه الصورة ، وبارتفاعها فوق كل الكنائس ، وهذا صحيح فعلا ، لأن الدولة لم تتشكل ، بوصفها شيئاً كلياً ، إلا على هذا النحو وبارتفاعها فوق العناصر الجزئية المكونة لها .

إن الدولة السياسية الكاملة هي في جوهرها الحياة الروحانية للإنسان التي تتعارض مع حياته المادية . وتستمر افتراضات أنانية هذه الحياة المادية في البقاء في المجتمع المدني خارج الدائرة السياسية ، ولكن استمرارها هو خاصة من خصائص المجتمع البورجوازي . ويعيش الإنسان في ازدهار الدولة ، في الفكر وفي الواقع ، ويعيش حياة مزدوجة سماوية وأرضية ، في اتحاد يجمع سياسيا بين الحياتين ويكونه ككائن عام . وهو يوجد ككائن عام في المجتمع المدني ، ويعمل كمجرد إنسان من العامة ، ويرى في سائر الناس مجرد وسائل ، وينحط هو نفسه فيكون مجرد وسيلة بالنسبة للغير ، ويصبح لعبة في قبضة القوى الغريبة عنه . والدولة السياسية بالنسبة للمجتمع المدني ، كمثل روحانية السماء بالنسبة إلى الأرض . وهي تتعارض مع المجتمع المدني كما تتعارض روحانية السماء مع

متطلبات الأرض ، وتنتصر الانتصار نفسه الذى ينتصر فيه الدين على الدنيا . والدولة السياسية مرغمة على الاعتراف بالمجتمع وإعادة إنشائه وإفساح المجال لكى تخضع هى نفسها له . والإنسان فى واقعه المباشر فى المجتمع المدنى كائن دنيوى ، ولكنه وهو فى المجتمع المدنى ، حيث يعد نفسه ويعده الآخرون بمثابة فرد واقعى ، ظاهرة فى غير مكانها . أما فى الدولة فالإنسان ، على العكس ، له قيمة بوصفه كائنا بشريا ، وهو عضو خيالى من سيادة خيالية ، مجرد من حياته الواقعية والفردية ، وملئ بكلية غير واقعية .

والمعارضة التى يجدها الإنسان بين الدين الخاص الذى يمارسه بوصفه مواطنا ، وبين بقية المواطنين بوصفهم مشتركين معه فى وحدة واحدة وهى الدولة ، ترجع إلى المعارضة القائمة بين المجتمع المدنى وبين الدولة السياسية . وبالنسبة إلى الإنسان الذى يقال له الإنسان البورجوازى « ليست الحياة فى الدولة إلا مظهراً أو خروجا عن القاعدة وشذوذا عن الجوهر » . والحقيقة أن البورجوازى مثل اليهودى ، لا يستمر فى البقاء فى الحياة السياسية إلا من خلال السفسطة والمغالطة ، مثلما لا يستمر المواطن فى البقاء فى الدولة إلا بسفسطة اليهودى مع المواطن اليهودى ، أو بسفسطة البورجوازى مع المواطن البورجوازى . ولكن هذه السفسطة لا ترجع إلى شخص

المواطن نفسه . إنها ليست سفسطة شخصية ، ولكنها سفسطة الدولة السياسية نفسها . والفرق بين الإنسان الدينى والمواطن ، هو فرق بين التاجر والمواطن ، وبين صاحب الملك والمواطن ، وبين الفرد والمواطن . وكذلك التناقض الذى يقوم بين الإنسان الدينى والإنسان السياسى ، هو نفسه التناقض بين البورجوازى والمواطن ، وهو التناقض نفسه الذى يقوم داخل الفرد نفسه بين عضويته للمجتمع البورجوازى أو كونه بورجوازيا فى مجتمع بورجوازى ، وبين جلد الأسد السياسى الذى يضعه على نفسه .

هذا التناقض العلمانى ، الذى تقبع المسألة اليهودية فيه فى النهاية ، يعنى علاقة الدولة السياسية بمقوماتها ، سواء كانت هذه المقومات عناصر مادية كالملكية الخاصة ، أو عناصر فكرية كالثقافة والدين . وهذا التناقض بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، وبين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازى ، وبالاختصار هذه التناقضات الدنيوية يتركها « باور » وشأنها ويهاجم صيغتها الدينية . « إن أساس المجتمع البورجوازى هو بالضبط الحاجة التى تضمن للمجتمع البورجوازى وجوده وتؤمّن له ضرورته . وهذا الأساس هو الذى يعرض وجود المجتمع البورجوازى لأخطار متصلة ، ويذكى فيه عنصرا غير موثوق به . وينتج هذا الخليط ، المتصل والمتغير دائما ، والمكون من

الفقر والغنى والشقاء والازدهار - ينتج التغيير »[1] .

ويمكن أن نتبين حقيقة « المجتمع البورجوازى » عند « باور » (ص ٨ - ٩) ، فهو يقوم على مبادئ فلسفة الحل لهيجل . والمجتمع البورجوازى عنده تعارضه الدولة السياسية . ونحن نعترف بقيام المجتمع البورجوازى بالضرورة لأننا نعترف كذلك بقيام الدولة السياسية بالضرورة .

والخلاصة أن التحرر السياسى هدف عظيم ، ولكنه ليس آخر شكل للتحرر الإنسانى ، إلا أنه آخر الأشكال الممكنة التى يبلغها التحرر الإنسانى فى إطار النظام العالمى الحالى ، وليكن مفهوما أننا نتحدث هنا عن التحرر السياسى الواقعى ، أى التحرر الذى يحدث عمليا وفى الواقع .

إن الإنسان يتحرر سياسيا من الدين باستخلاص الدين كعنصر من عناصر الحق العام ، وجعله من عناصر الحق الخاص بالفرد . والدين ينتقض كونه روح الدولة حيث يعمل الإنسان بوصفه كائناً فرداً ومشاركاً فى العمل مع الآخرين ، ومن ثم يصبح الدين روح المجتمع البورجوازى فى حدود الأنانية ، ويصبح الروح التى تدفع الجميع إلى

---

(١) ص ٨ .

الدخول فى حرب مع الجميع bellum omnium contra omnes .

إن الدين عندما صار مسألة تهم الفرد ومن خصوصيته ، لم يعد جوهر الجماعة ، وإنما صار علماً يتميز به البعض ، فهو قد صارجوهر وروح التميز . لقد أصبح الدين ما كان فى الأصل . صار تعبيرا عن انفصال الإنسان عن الجماعة وعن نزوعه عن ذاته ، وعن الناس الآخرين . لم يعد إلا تأكيداً للنزعات الخاصة والهوى الشخصى .

وانجزاء الدين لا متناهياً تبعا للانهائية معتنقيه ، فى أمريكا مثلا ، يضفى على الدين شكل القضية الخاصة التى تهم الأفراد ، ولا تهم المجتمع . الأمر الذى يجعلنا نبعد الدين عن التحرر السياسى ، فانجزاء الإنسان إلى إنسان عام وإنسان خاص ، وفصل الدين عن الدولة فى المجتمع البورجوازى ، ليس درجة من درجات التحرر السياسى ، وإنما هو اكتمال التحرر الذى لا يلغى ولا يحاول أن يلغى واقع التدين عند الإنسان .

وانجزاء الإنسان إلى يهودى ومواطن ، وإلى بروتستانتى ومواطن ، وإلى إنسان متدين ومواطن ، هذا الانجزاء ليس ضد أن يكون الإنسان مواطنا ، وليس ضد التحرر السياسى : وإنما هو التحرر السياسى نفسه ، والطريقة السياسية التى يتخلص بها الإنسان من الدين . ومن الطبيعى أن الدولة تستطيع بل وينبغى لها (فى عهود تؤكد فيها الدولة

السياسية بوصفها دولة سياسية انبثاقها العنيف من المجتمع البورجوازى ، ويحاول فيها التحرر الإنسانى أن يتم فى شكل تحرر شخصى سياسى) أن تواصل سيرها إلى حد إلغاء الدين ومحوه ، مثلما تفعل إزاء الملكية الخاصة ، فتصل إلى الحد الأعلى معها بمصادرتها ، وإلى فرض ضريبة تصاعدية عليها ، أو إلى مصادرة الحياة نفسها بالجيلوتين . وفى اللحظات التى تعى فيها الدولة ذاتها بصورة خاصة ، تحاول الحياة السياسية خنق مقوماتها الأولية ، وهى المجتمع البورجوازى وعناصره ، وأن تقيم نفسها بوصفها الحياة الإنسانية الحقيقية ، غير المتناقضة للإنسان بوصفه عضوا فى الجنس البشرى . ولكن الحياة السياسية لا تستطيع أن تبلغ هذه النهاية إلا بنقضها نقضا عنيفا لمقومات وجودها نفسه ، وبإعلانها الثورة فى حالة دائمة ، و إلا كان على الدراما السياسية أن تنتهى بإحياء الدين والملكية الخاصة ، وكل عناصر المجتمع البورجوازى ، تماما مثلما تنتهى الحرب بالسلم .

الدولة الدينية والدولة الديموقراطية

إن الدولة المسيحية الكاملة ليست هى الدولة المسيحية المزعومة التى تعترف بالمسيحية دينا رسميا لها وتستبعد كل الديانات الأخرى . إن الدولة الكاملة على الأصح هى الدولة المتحدة ، الدولة الديموقراطية التى

تضع الدين بين مقومات المجتمع البورجوازى الأخرى ، وتستبعده بهذه الصفة . أما الدولة التى ما تزال دولة دينية ، وتجعل من المسيحية مهنة رسمية ، فإنها دولة لم تنجح بعد في تحقيق الأساس الإنسانى الذى ليست المسيحية بالنسبة له إلا تعبيرا دنيويا منمقا . والدولة المسيحية المزعومة ببساطة ليست دولة لأن الديانة المسيحية لا تعبر عن نفسها فى المخلوقات الإنسانية ، بل هو الأساس الإنسانى فى تلك الديانة هو الذى يعبر عن نفسه فى المخلوقات الإنسانية . والدولة المسيحية المدعاة هي نفى أو ملاشاة مسيحية للدولة ، وليست بأى حال من الأحوال التحقيق السياسى للمسيحية . والدولة التى تستمر فى الاعتراف بالمسيحية كدين ، لا تعترف بها بعد فى شكل سياسى، لأنها ما تزال تتصرف إزاء الدين تصرفا دينيا ، وهذا يعنى أنها ليست تحققا حقيقيا للأساس الإنسانى للدين ، لأنها ما تزال نتيجة لغير الواقع ، نتيجة للشكل المتخيل للنواة الإنسانية .

والدولة المسماه بالدولة المسيحية دولة غير كاملة ، ولأنها غير كاملة تعتبر الدين المسيحى مكملا لنقصها ، ومن ثم يصبح الدين عندها وسيلة ضرورية لوجودها ، وهكذا تتناقض مع نفسها وتصبح دولة منافقة ، فهناك فرق بين أن تعتبر الدولة الدين أساسا لها وبين أن تعتبره وسيلة لوجودها ، فإما أن تعتبر الدولة الكاملة الدين شرطا

ضمن شروط تواجدها ، وذلك بسبب النقص الملازم لجوهرها العام ، وإما أن تنادى الدولة الكاملة بالدين أساسا لها بسبب النقص الملازم لوجودها الخاص ، أى من حيث هى دولة ناقصة . وفى هذه الحالة الأخيرة يصبح الدين سياسة ناقصة ، وفى الحالة الأولى يظهر فى الدين نقص السياسة الكاملة.

إن الدولة المسماة بالدولة المسيحية فى حاجة إلي الدين المسيحى ليكملها كدولة . أما الدولة الديموقراطية أى الدولة الحقيقية فلا تحتاج إلى الدين لتكمل نفسها سياسيا ، بل هى تستطيع أن تسقط الدين من حسابها ، لأن الأساس للدين متحقق فيها بصورة دنيوية . أما الدولة المسماة بالدولة المسيحية فهى على العكس تقف من الدين موقفا سياسيا ، وتقف من السياسة موقفا دينيا ، فإذا كانت تحط فى الظاهر من شأن الأشكال السياسية فإنها لتحط كذلك من شأن الدين من ناحية الشكل .

وحتى يتسنى للقارئ أن يفهم بشكل أفضل هذا التعارض فى شكل الدولة المسيحية سنناقش البناء الذى يقدمه لنا « برونوباور » عن الدولة المسيحية والذى أقامه كنتيجة لدراسة الدولة الألمانية المسيحية .

يقول « باور » : تداول الناس من زمن قريب جدا وفى مناسبات

عديدة أقوال الإنجيل التى تعارض فكرة الدولة وذلك بغية التدليل على استحالة وجود الدولة المسيحية أو عدم وجودها ، لأنها لا تتمشى معها إلا إذا كانت تريد أن تنحل انحلالا كاملا . » ولكن الرد النهائى على هذه الأقوال أقل ، إذ بماذا تطالب هذه الأقوال الإنجيلية ؟ إنها تطالب بالخضوع لسلطة الوحي وإلغاء الدولة ومقومات الحياة الدنيوية . ولكن الدولة المسيحية هى الأخرى تطالب بنفس الشئ وتحققه ، لأنها تمثلت روح الإنجيل ، وإذا كانت لا تعبر عن ذلك بنفس التعبيرات التى يستخدمها الإنجيل ، فذلك لأن الدولة ببساطة تعبر عن هذه الروح بصيغ أساسية ، أى بأشكال قد استعارتها حقا من النظام السياسى لهذا العالم . ولكن الدولة المسيحية إذ تستعير الأشكال السياسية يرغمها البعث الدينى على الخضوع له ، وبذلك تستحيل الأشكال السياسية إلي مجرد مظاهر تبتعد عن الدولة . وهذا الابتعاد يستخدم فى نفس الوقت لتحقيق الأشكال السياسية للدولة »[1] .

ويستطرد « باور » إن شعب الدولة السياسية لا يعود شعبا ، لأنه فقد إرادته الخاصة . وهذا الشعب مع ذلك له وجوده الحقيقى متمثلا فى رئيس الدولة الذى يدين الشعب بالخضوع له ، ولكن هذا الرئيس من ناحيته ، بحكم أصله وطبيعته ، غريب عن الشعب لأنه مفروض عليه

---

(١) ص ٥٥

من قبل الإله دون أن يكون للشعب ذاته أدنى رأى فى الموضوع . والشعب لم يصنع قوانينه الخاصة به ، والقوانين عبارة عن كلمات موحى بها ، والذى أوحى بها يحتاج إلى وسطاء متميزين يتوسطون بينه وبين الشعب وينقلونها إليه . ومن ثم يستحيل الشعب هذه الكتلة الجماهيرية ، إلي مجموعة من الدوائر التى تتمايز علي بعضها البعض ، والتى تتكون وتتحد بالمصادفة وحدها ، وتختلف بين بعضها البعض من حيث مصالحها وأهوائها الخاصة وأحكامها المسبقة ، وبذلك تنفصل عن بعضها البعض »[١] . ولكن باور هو نفسه الذى يقول بعد ذلك « وإذا كان يجب على السياسة أن لا تكون غير الدين ، فعليها أن تكون سياسة ، تماما مثلما أن تنظيف الأوعية ، إذا كان يعد عملا مفيداً ، فينبغى أن لا ننظر إليه على أنه من شئون البيت »[٢] . لكن الدين فى الدولة الألمانية المسيحية مسألة من « شأن الاقتصاد » تماما كما يكون ما هو من اختصاص الاقتصاد دينا ، بمعنى أن سلطة الدين فى الدولة الألمانية المسيحية هى دين السلطة .

ولكن فصل ، « روح » الإنجيل عن « حرفه » عمل لا دينى ، والدولة التى تنطق الإنجيل بحروف السياسة وبحروف غير حروف الروح

---

(١) ص ٥٦ .
(٢) ص ١٠٨ .

القدس تحرق المقدسات ، إن لم يكن في نظر الناس فعلى الأقل من وجهة النظر الدينية . والدولة التي تعلن الإنجيل دستوراً لها والمسيحية قانونا أعلى ينبغي أن نعارضها بأقوال الكتاب المقدس ، ذلك لأن الكتاب المقدس مقدس حتى في أقواله . ومثل هذه الدولة كالقمامات البشرية المشيدة عليها تنطوي على تناقض مؤلم لا يمكن حله ، من وجهة نظر الضمير الديني عندما يحيل إلى كلمات الإنجيل التي لا تتفق الدولة معها بل ولا يمكن أن تتفق معها إلا إذا أرادت أن تنحل انحلالا كاملا . ولماذا لا تريد الدولة المسيحية أن تنحل وتذوب انحلالا كاملا ؟ إن الدولة المسيحية الرسمية أمام ضميرها الخاص هي صيرورة من المستحيل أن تتحقق ، وهي لا يمكن أن تثق في حقيقة وجودها إلا بالكذب على نفسها ، ولذلك تبقى في نظر نفسها موضعا للشك ومشكلة مستعصية . ويحق للنقد إذن بصورة مطلقة أن يرغم الدولة المرتكزة على الكتاب المقدس على مراجعة ضميرها وزعزعة ثقتها فيه حتى لا يعرف هذا الضمير من بعد إن كان هو فعلا واقعا أم أنه مجرد وهم . وكذلك يحق للنقد أن يُدخل الغايات الدنيوية للدولة المرتكزة على الكتاب المقدس ، هذه الغايات التي يقف منها الدين موقف الستار الذي يخفيها ، أن يُدخلها في منازعات لا حل لها مع شرف ضميرها الديني ، هذا الشرف الذي يرى في الدين غاية

للعالم . وهذه الدولة المرتكزة على الكتاب المقدس لا يمكنها أن تفلت من أحزانها الباطنة إلا إذا أصبحت عنصراً من العناصر المعاونة للكنيسة الكاثوليكية ، وتكون الدولة عاجزة أمام هذه الكنيسة التى من رأيها أن السلطة العلمانية ينبغى أن تخضع لها خضوعا تاما ، وكذلك تقف الدولة العلمانية التى تدعى أنها التجسيد لسيادة الروح الدينى موقف العاجز أمام الكنيسة الكاثوليكية .

والشئ الذى له قيمة فى الدولة المسماة بالدولة الدينية ليس هو الإنسان ، وإنما هو التخلى عن الجوهر الإنسانى . والإنسان الوحيد الذى يحسب حسابه وهو الملك يختلف عن الناس الآخرين نوعيا ، وهو من ناحية أخرى كائن ما يزال دينيا مرتبطاً مباشرة بالسماء والإله ، والعلاقات الموجودة هنا ما تزال علاقات تقوم على الإيمان ، فالروح الدينى لم يصبح فى الواقع بعد علمانيا .

ولكن الروح الدينى لا يمكن أن يصبح فى الواقع علمانيا ، فأى شئ هو فى الواقع شكل من أشكال تطور الفكر الإنسانى ، إلا إذا كان من خارج هذه الدنيا ، وعلى ذلك فالروح الدينى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الفكر الإنسانى ، الذى هو تعبير عن الروح الدينى ، قد تطور إلى الدرجة التى يظهر بها الروح الدينى متجسدا فى شكله الدنيوى . وهذا هو ما يحدث فى الدولة الديموقراطية ، فما

يصنع أساس هذه الدولة ليس هو المسيحية وإنما هو الأساس الإنسانى للمسيحية . وفيها يصبح الدين بمثابة الضمير المثالى للناس فيها وليس الضمير الدنيوى ، وذلك لأن الدين يكون بمثابة الشكل المثالى لدرجة تطور إنسانية تتحقق فيه .

وأعضاء الدولة السياسية دينيون بحكم ازدواجية الحياة الفردية والحياة الاجتماعية ، أو بحكم المجتمع البورجوازى والحياة السياسية . وهم دنيويون بمعنى أن الإنسان فى الدولة السياسية يعتبر الحياة السياسية القائمة خلف فرديته الخاصة حياته الحقيقية . وهم دينيون بمعنى أن الدين هنا هو روح المجتمع البورجوازى ، وهو التعبير عن كل ما يفصل ويبعد بين الإنسان والإنسان . والديموقراطية السياسية مسيحية بمعنى أن الإنسان ، كل إنسان هو فيها كائن مسيطر ، كائن أسمى ، ولكنه الإنسان غير المثقف وغير الاجتماعى ، الإنسان فى وجوده العارض ، كما هو ، الإنسان الذى أفسدته كل التنظيمات الاجتماعية ، والذى فقد ذاته وتخلى عن جوهره ، ووُضِع تحت وطأة ظروف ومقدمات غير إنسانية ، وبالاختصار ، هو الإنسان الذى لم يصبح كائنا إنسانياً حقيقياً .

إن حلم المسيحية وما ابتدعته بخيالها هو أن يسود الإنسان ، ولكن الإنسان لا يسود لأنه مجرد إنسان موجود ، فواقع الإنسان خلاف

ذلك ، ومـا لا يـحـقـقـه الإنسـان فى الخـيـال والحلم لم يصـبح فى الديموقراطية مبدأ دنيويا .

والضـمير الدينى واللاهوتى يظهر لنفسه فى الديموقراطية الكاملة أكثر دينية ولاهوتية بمقدار ما يبدو هو فى ظاهره ، أى بمقدار ما هو دون مدلول سياسى وأغراض دنيوية ، وبمقدار مـا هو شأن من شئون القلب ، معادٍ للدنيا ، ومعادٍ لطبيعة العقل المحدود ، وموغل فى الحياة الأخرى التى يعتبرها الحياة الحقيقية التى تقوم لا على العقل ولكن على الهوى والاعتباطية . هنا تصل المسيحية إلى التعبير عن مدلولها الدينى الشامل تعبيرا عمليا ، لأن مفاهيم العالم الأكثر تناقضا تتجمع كلها فى شكل المسيحية ، وخاصة أن المسيحية لا تفرض على المؤمنين بهـا التـوفـر على الدين بعـينه دون غـيـره ، وإنما هـى تفـرض على أصحابها أن يكون للإنسان دين ، وليكن هذا الدين أى دين ، ذلك لأن الوجدان الدينى يتلذذ بغنى التناقض الدينى وتنوعه .

طريق التحرر الجذرى من اليهودية

أوضحتُ أن التحرر السياسى من الديانات يسمح للدين بالاستمرار وإن كان هذا الدين الأخير لا يعود دينا متميزا . وليس التناقض الذى يجد تابع أحد الأديان نفسـه فيه ، بين كونه تابعا لهذا الدين وكونه

مــواطنا تابعــا لدولة ، إلا جــزءا من التناقض الشــامل بين الدولة السياسية وبين المجتمع البورجوازى . وعندما تكتمل الدولة المسيحية فلن يكون ذلك إلا عندما تعرف الدولة المسيـحية نفسها بأنها دولة ، وتتغاضى عن دين أتباعها . ومع ذلك فتحرر الدولة من الدين ليس هو تحرر الإنسان تحررا واقعيا من الدين .

وإذن فلا يمكن أن نقول مع « باور » لليهود : إنكم لن تستطيعوا أن تتحـرروا سياسـيا دون أن تتـحرروا من اليـهودية تحررا جذريا ، بل نقـول لهم : أنتم لأنكم لا تسـتطيـعون أن تتحـرروا سـياسـيا دون أن تنفصلوا إنفصالا كاملا مطلقا عن اليهودية ، فإن تحرركم السياسى لا يمكن أن يكون تحـررا إنســانيـا . فــإن كنتم تريدون أن تتـحــرروا سياسيا دون أن تحرروا أنفسكم إنسانيا فإن النقص والتناقض ليسا صـفـتـين فـيكـم وحـدكم ولكنهـمـا أيضـا فى جـوهر مـقـولة التــحـرر السياسى . فإن كنتم متشبعين بهذه المقولة فإنكم تشاركون فى الوهم العام . وإذا كانت الدولة الإنجيلية تتصرف كدولة مسيحية إزاء اليهود ، برغم أنها دولة لإن اليهودى عندما يطالب برغم أنه يهودى ، بحقوق المواطن ، يكون مشتغلا بالسياسية .

ومن وقت أن يســتطيع الإنســان ، برغم كــونه يهــوديا ، أن يتحررسياسيا وينال حقوقه كمواطن ، فهل يستطيع أن يطالب بما

يسمى حقوقه الإنسانية ؟ يجيب « باور » على ذلك بالنفى . « لأن المسألة تتعلق بمعرفة ما إذا كان اليهودى فى ذاته ، أى اليهودى الذى يعترف بأنه مضطر بسبب جوهره الحقيقى كيهودى أن يعيش للابد منفصلا عن الآخرين ، صالحاً لتلقى الحقوق العامة الواجبة للإنسان ومنحها لغيره » .

« ولم تُكتشف فكرة حقوق الإنسان بالنسبة إلى العالم المسيحى إلا فى القرن الماضى . وهى حقوق لم يولد بها الإنسان ، بل إنها على العكس تكتسب خلال نضاله ضد التقاليد التاريخية التى درج عليها الإنسان حتى اليوم . وليست حقوق الإنسان منحة تضيفها عليه الطبيعة ، ولا هى نعمة قد وهبها له ما غبر من تاريخ ومضى ، وإنما هى ثمن نضاله ضد الامتيازات التى يتمتع بها البعض والصدف التى تميز البعض بحكم الأنساب والمصاهرات . هذه الامتيازات التى نقلها التاريخ من جيل إلى جيل حتى الآن . وليست هذه الحقوق الإنسانية إلا نتاج الحضارة ، ولا يستطيع أن ينالها ويمتلكها إلا ذلك الذى يستحقها ويكتسبها » .

« فهل يستطيع اليهودى أن يمتلك حقيقة هذه الحقوق الإنسانية ؟ الجواب أن اليهودى طالما أنه باق كيهودى فجوهره المحدود الذى يجعل منه يهوديا سيتغلب بالضرورة على الجوهر الإنسانى الذى كان

يجب أن يربطه بوصفه إنسانا بغيره من الناس . وهذا الجوهر المحدود الذى يجعله يهوديا يعزله عن غيره الذى ليس يهوديا . واليهودى يعلن بانفصاله هذا عن الناس أن الجوهر الخاص الذى يجعل منه يهوديا هو جوهره الحقيقى الأسمى الذى يجب أن يتلاشى أمامه جوهر الإنسان »[1] .

ويرى « باور » أن الإنسان عليه أن يضحى « بمبدأ الإيمان » كى يمكنه أن يستقبل الحقوق للإنسان . ولنناقش قليلا ما هى هذه الحقوق العامة للإنسان ، ولنناقشها فى شكلها الحقيقى أى الشكل الذى نجدها عليه عند مبدعيها ، الأمريكيين الشماليين والفرنسيين . ونحن نجد أن حقوق الإنسان هذه فى جانب منها حقوق سياسية لا يمكن أن يمارسها صاحبها إلا إذا تواجد فى مجتمع من الناس فى دولة ، ومضمونها إذن هو المشاركة فى الحياة السياسية العامة وحياة الدولة ، وعلى ذلك تندرج تحت مقولة الحرية السياسية ، أو مقولة الحقوق المدنية التى لا تفترض أبداً كما رأينا الإلغاء الوضعى المحتوم للدين ، ولا لليهودية . وإذن يتبقى أمامنا بعد ذلك أن نناقش الناحية الأخرى من هذه الحقوق الإنسانية من حيث هى مختلفة عن حقوق المواطن .

---

(١) ص ١٩ ، ٢٠ .

« ان الإنسان لا ينبغى أن يُضطهد بسبب آرائه حتى ولو كانت دينية » . (إعلان حقوق الإنسان والمواطن سنة ١٧٩١ الباب العاشر) وتضمن الباب الأول من دستور سنة ١٧٩١ « حرية كل إنسان فى ممارسة الديانة التى يحرص عليها » ، بوصف هذه الحرية حقا من حقوقه كإنسان .

ويتضمن إعلان حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٩٣ ، من بين حقوق الإنسان ، المادة السابعة والتى تنص على حرية ممارسة العبادات » وأكثر من ذلك أنه قد قيل فى موضوع حق التعبير عن الأفكار والآراء وحق الاجتماع وممارسة العبادة « أن ضرورة تعداد هذه الحقوق تفترض إما وجود الاستبداد وإما وجود ذكراه قريبة » . (دستور سنة ١٧٩٥ الباب الثانى عشر المادة ٣٥٤) .

« إن الناس جميعا قد تلقوا من الطبيعة حقا غير قابل للإلغاء هو حق عبادة إله جلّت قدرته ، حسب ما تمليه عليهم ضمائرهم ، ولا يمكن أن يجبر قانون من القوانين أحداً من الناس على اتباع أى مذهب أو كهنوت دينى ، أو أن يرغمه على إقامة شعائر دين أو اعتناقه ضد رغبته ، ولا تستطيع أى سلطة بشرية بأى حال من الأحوال أن تتدخل فى مسائل الضمير وأن تراقب القوى الروحية » (دستور بنسلفانيا الباب التاسع المادة الثالثة) .

وهناك من الحقوق الطبيعية مالا يمكن التخلي عنه من حيث طبيعته ، لأنه لا يوجد ما يعادلها ويعوض عنها ، ومنها حقوق الضمير » . (دستور نيوهامبشاير - المادتان الخامسة والسادسة - بومون ص ٢١٣ ، ٢١٤) .

ونحن نجد أثراً ضئيلا من آثار استحالة التوفيق بين الدين وحقوق الإنسان في مفهوم حقوق الإنسان ، لدرجة أن حق الإنسان في الإيمان بدين طبقا لما يريد ، وأن يمارس فروض هذا الدين الذي آمن به ، تعد بعضا من حقوق الإنسان ، فامتياز الإيمان هو حق عام من حقوق الإنسان.

ولكن حقوق المواطن يميز بينها وبين حقوق الإنسان . وإننا لنتساءل من هو الإنسان المتميز عن المواطن ؟ إنه ليس سوى عضو المجتمع البورجوازي . ولكن لماذا يسمى عضو المجتمع البورجوازي إنسانا وإنسانا فقط ؟ ولماذا تسمى حقوقه حقوق الإنسان . وبماذا نفسر ذلك ؟ بالعلاقة بين الدولة السياسية والمجتمع البورجوازي ، وبجوهر التحرر السياسي .

ولنلاحظ من الأول أن حقوق الإنسان المتميزة عن حقوق المواطن ليست إلا حقوق عضو المجتمع البورجوازي ، أي حقوق الإنسان

الأنانى ، الإنسان المغترب عن الإنسان ، وعن المجتمع . وعبثا يحاول أكثر الدساتير راديكالية مثل دستور سنة ١٧٩٣ أن ينادى بأن « هذه الحقوق (الحقوق الطبيعية والتى لا يمكن إلغاؤها) هى المساواة والحرية والأمن والملكية » (المادة الثانية) .

وفيما تقوم الحرية ؟ « المادة السادسة – الحرية هى القدرة التى يملكها الإنسان على أن يفعل كل ما لا يلحق الضرر بحقوق الآخرين » أو هى طبقا لإعلان حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٩١ « الحرية هى قدرة الإنسان على أن يفعل كل ما لا يلحق الضرر بالآخرين » .

وإذاً فالحرية هى الحق فى إتيان ما لا يضر بالآخرين . ويحدد القانون الحدود التى يمكن لكل إنسان أن يتحرك فى إطارها دون أن يضر بالآخرين ، تماما مثلما تتعين الحدود بين حقلين بأوتاد بينهما . وحرية الإنسان هى حريته كجوهر فرد بمعزل عن الآخرين ومنطو على نفسه . وإذاً فلماذا لا يصلح اليهودى ، كما يقول باور، لأن تكون له حقوق الإنسان ؟ يقول باور « إن اليهودى طالما أنه باق على يهوديته فالجوهر المحدود الذى يجعل منه يهوديا سيتغلب حتما على الجوهر الإنسانى الذى كان من الواجب أن يكون الرابطة التى تربط بينه كإنسان وبين الناس الآخرين » .

ولكن الحرية وهى حق إنسانى لا تقوم على علاقة الإنسان بإنسان والربط بينهما ، ولكنها تقوم على الأصح على الانفصال بين الإنسان والإنسان . والحرية أو حق الحرية هو الحق الذى للإنسان فى هذا الانفصال ، أو حق الفرد المحدد داخل ذاته .

والتطبيق العملى لحق الحرية هو حق التملك ملكية فردية . ولكن فيما يقوم حق التملك ؟

« حق التملك هو حق كل مواطن فى التمتع والتصرف كما يرى فى أمواله ودخله وثمرة عمله وصناعته » (دستور سنة ١٧٩٣ المادة السادسة عشرة) .

وإذاً فحق الملكية هو حق الإنسان فى التمتع بثروته والتصرف فيها كما يشاء دون الاهتمام بالناس ، وبصورة مستقلة عن المجتمع . وهو حقه فى أن يكون أنانيا . وهذه الحرية الفردية وتطبيقها عمليا متمثلا فى حق الملكية ، هى أساس المجتمع البورجوازى . وهما تبينان لكل إنسان خطورة هذه الحرية وتطبيقها عند إنسان آخر ، ومن ثم وجوب تقييد هذه الحرية .

وتتبقى بقية حقوق الإنسان وهى المساواة والأمن .

وكلمة مساواة هنا ليس لها مدلول سياسى ، وهى ليست إلا

المساواة في الحرية التي سبق أن عرّفناها : أن كل إنسان هو بمثابة ذرة ترتكز على ذاتها . ويعين دستور سنة ١٧٩٥ مدلول هذه المساواة فيقول « إن المساواة هي تساوي الجميع أمام القانون ، سواء حين يحمي أو حين يعاقب » (المادة الخامسة)

وما هو الأمن ؟ يقول دستور سنة ١٧٩٣ في تعريفه « إن الأمن هو الحماية التي يضفيها المجتمع على كل من أعضائه لصون حياته وحقوق ملكيته » (المادة الثامنة) .

« إن الأمن هو أسمى مبدأ اجتماعي في المجتمع البورجوازي ، وهو المفهوم الذي تدور حوله قوانين الشرطة : إن المجتمع كله ليس موجودا إلا كي يضمن لكل من أعضائه صون حياته وحقوقه وملكيته . وحول هذا المعنى يسمى هيجل المجتمع البورجوازي « دولة الحاجة والعقل » .

وكما نرى فإن مفهوم الأمن هنا ليس بكاف ، وهو هنا لا يعني إلا أنه ضمان على الأصح لأنانية المجتمع البورجوازي .

وإذن لا يوجد أي حق من حقوق الإنسان السابقة تتجاوز أنانية الإنسان ، الإنسان كما هو ، عضو المجتمع البورجوازي ، الفرد المنعزل عن المجتمع والمنطوي على نفسه والذي تعنيه فقط مصالحه

الشخصية والذى يستجيب فقط لأهواء نفسه .

والإنسان كما يتمثل فى هذه الحقوق السابقة لا يمكن أن يكون مخلوقا اجتماعيا ، بل إن العكس هو الصحيح ، فالحياة الإنسانية من حوله أى المجتمع لا تعدو أن تكون إطاراً خارج الفرد يحدد حريته الأولية . والرابطه الوحيدة التى تجمع بين الفرد والفرد هى الضرورة الطبيعية ، حاجة الفرد والفرد إلى بعضهما لتحقيق مصلحة كل ، المتمثلة فى الاحتفاظ بملكية كل وشخصيهما الأنانيين .

وإذن يصبح من الصعب تفسير كيف يمكن أن ينادى شعب من الشعوب مفاخرا (١٧٩١) - عندما يأخذ بأسباب التحرر ويسقط كل الحواجز التى تقف أمام كل أفراد الشعب - بحق الإنسان الأنانى المنعزل عن زميله وعن المجتمع ، بل ويعود إلى هذه المناداة فى وقت ليس لإنقاذ الوطن فيه من سبيل إلا بأشد ألوان الإخلاص بطولة ، ويتطلب فيها هذا الإخلاص التضحية بكل منافع المجتمع البورجوازى ومعاقبة الأنانية كجريمة (سنة ١٧٩٣) . وتغمض المسألة أكثر من ذلك عندما نلاحظ أن التحرر السياسى يجعل من المجتمع السياسى أو المجتمع المدنى مجرد وسيلة لصيانة هذه الحقوق الإنسانية المدعاة ، وحين نلاحظ أن المواطن يُنادَى به خادما « للإنسان » الأنانى ، وأن الدائرة التى يعمل فيها الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً تهبط إلى

ما دون الدائرة التى يعمل بها بوصفه كائنا فردا . وأخيرا نلاحظ أن الإنسان من حيث هو بورجوازى ، وليس الإنسان من حيث هو مواطن ، هو الذى يُنظَر إليه بوصفه الإنسان الحقيقى .

« إن غاية كل تجمع سياسى هو المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية التى لا يمكن إلغاؤها » (إعلان ١٧٩١ المادة الثانية) . « تقوم الحكومة لتضمن للإنسان التمتع بحقوقه الطبيعية التى لا يمكن إلغاؤها » (إعلان ١٧٩٣ المادة الأولى) وإذاً فالحياة السياسية ، حتى فى فترات عنفوان حداثتها ، والتى تدفعها قوة الظروف إلى آخر ما يمكن أن تصل إليه ، هذه الحياة السياسية تفصح عن نفسها على أنها ليست إلا مجرد وسيلة ، وأن غايتها هى حياة المجتمع البورجوازى . وأكثر من ذلك أن هذه الحياة السياسية فى نشاطها العملى الثورى تتناقض بشكل فاضح مع نظريتها ، فمثلا ، على حين أنها تعلن أن الأمن هو حق من حقوق الإنسان ، فإنها تمارس خرق سرية المراسلات ، وعلى حين أنها تعلن ضمان « حرية الصحافة حرية غير محدودة » (إعلان سنة ١٧٩٣ المادة ١٢٢) كنتيجة تترتب على حق الحرية الفردية ، فإنها قد قضت على حرية الصحافة قضاء تاما حين قررت « أن حرية الصحافة يجب أن لا يسمح بها حين تمس الحرية العامة » (« روبسبيير الشاب » ، « التاريخ البرلمانى للثورة الفرنسية »

تأليف « روشيز » و« رو » الجزء الثامن والعشرون ص ١٣٥) . وكل ذلك يعني أن القول بحق الحرية لا يصبح حقاً في الوقت الذي يتعارض فيه هذا الحق مع الحياة السياسية ، على حين أن هذه الحياة السياسية ، من الناحية النظرية ، ليست إلا الضمان الذي يكفل حقوق الإنسان الفردي ، ومن ثم ينبغي إيقاف حقوق الإنسان هذه من الوقت الذي تتناقض فيه مع غايتها . ولكن النظرية مع ذلك تعتبر القاعدة ، والتطبيق العملي هو الاستثناء . ولكي يبقى الفعل الثوري العملي هو الوضع الصحيح للعلاقة يتحتم الرد على هذا السؤال : لماذا انقلبت هذه العلاقة في ذهن المحررين السياسيين ، بحيث أصبحت الغاية وسيلة والوسيلة غاية ؟ وسيظل اضطرابهم هذا مشكلة قائمة مستقرة في وعيهم من الناحية النفسية والنظرية.

ولكن حل المشكلة بسيط .

فالتحرر السياسي تحلل للمجتمع القديم الذي ترتكز عليه الدولة والذي لم يكن للشعب فيه أي دور ، وانحلال المجتمع القديم يعني انهيار سلطة الملك .

والثورة السياسية هي ثورة المجتمع البورجوازي . وكيف كان المجتمع القديم ؟ إن كلمة واحدة تصفه: أنه كان مجتمعاً « إقطاعياً » .

وكان للمجتمع البورجوازى القديم طابع سياسى مباشر ، أى أن مقومات الحياة البورجوازية كالملكية أو الأسرة أو نظام العمل تحولت فى ظل الإمارة أو الطائفة المغلقة أو الطائفة المهنية ، مقومات حياة الدولة . وحددت هذه المقومات فى ظل هذا النظام ، علاقة الفرد بالدولة ، أىَ أنها حددت الوضع السياسى للفرد ، وهو وضع كان يبعده عن عناصر المجتمع الأخرى . ولم يرفع هذا التنظيم للحياة الشعبية ، فى الواقع ، الملكية إلى مستوى العناصر الاجتماعية ، بل إنه على العكس ، أسرع فى فصلها عن جسم الدولة . وجعل منها مجتمعا خاصا يعيش ضمن المجتمع . ورغم ذلك فقد ظلت الوظائف والمقومات الحيوية للمجتمع البورجوازى سياسية ، أى أنها سياسية بمعنى أنها كانت تفصل ما بين الفرد والدولة . وكانت تحول العلاقة الخاصة بين الطائفة المهنية التى ينتمى إليها الفرد والدولة إلى علاقة عامة بين الفرد والحياة الشعبية ، وكانت تحول نشاطه ووضعه ، وهما نشاط ووضع بورجوازيان ، إلى نشاط ووضع عامين ، كنتيجة لتنظيم المجتمع البورجوازى . وكانت كذلك تظهر وحدة الدولة وضميرها وإرادتها والسلطة السياسية العامة بمظهر المسائل التى تخص الملك ، الملك الذى يتميز بأنه مفصول عن الشعب وعن رعاياه .

والثورة السياسية التى قلبت سلطة الملك وجعلت شئون الدولة شئوناً

للشعب ، وجعلت من الدولة السياسية مسألة عامة ، أى دولة واقعية ، هذه الثورة حطمت بالضرورة كل شئ : الطبقات والطوائف المهنية ، والمشرفين على مصالحها ، والامتيازات التى كانت تفصل بين الشعب وبين المجتمع . وإذاً فالثورة السياسية ألغت الطابع السياسى البورجوازى ، وحللته إلى عناصره البسيطة ، الأفراد فى جهة ، وفى جهة أخرى العناصر المادية الفكرية التى تشكل مادة الحياة ، والوضع البورجوازى لهؤلاء الأفراد . وأطلقت الروح السياسية إنْ صح التعبير التى كانت مفككة ومجزأة وضائعة فى مآزق المجتمع الإقطاعى ، وجمعت من شتاتها وحررتها من اختلاطها بالحياة البورجوازية ، وجعلت فى الدائرة نشاط المجتمع وقضية الشعب العامة ، الدائرة المستقلة نظريا عن هذه العناصر الخاصة للحياة البورجوازية . ولم يبق للنشاط الخاص والموقف الخاص للحياة إلا أهمية فردية ، ولم تعد هى العلاقة العامة بين الفرد وبين هيكل الدولة . بل إن المسائل العامة منظورا إليها بوصفها كذلك تصبح مسائل عامة لكل فرد ، كما تصبح القضية السياسية وظيفة عامة .

وكان اكتمال مثالية الدولة فى نفس الوقت اكتمالا لمادية المجتمع البورجوازى ، فألغيت مع إلغاء النير السياسى فى وقت واحد القيود التى كانت تقف عثرة فى سبيل أنانية المجتمع البورجوازى ، فقد كان

التحرر السياسى فى نفس الوقت تحرراً للمجتمع البورجوازى من السياسية حتى من مظهر أن يكون له مضمون له صفة عامة .

لقد انحل المجتمع الإقطاعى من أساسه ، أى الإنسان ، لكنه الإنسان الإنسانى الذى كان أساس المجتمع الإقطاعى فى الواقع .

ولكن هذا الإنسان عضو المجتمع البورجوازى هو أساس وشرط الدولة السياسية . واعترفت به الدولة بهذه الصفة فى حقوق الإنسان .

غير أن حرية الإنسان الإنانى ، والاعتراف بهذه الحرية ، هى فى الأصح الاعتراف بحركة هذه العناصر الفكرية والمادية والتى تكون مضمون الحرية ..

وإذاً فالإنسان لم يتحرر من الدين ، بل هو تلقى الحرية الدينية ولم يتحرر من الملكية ، ولم يتحرر من أنانية الحرفة والصنعة بل تلقى حرية الحرفة والصنعة .

إن إنشاء الدولة السياسية وانحلال المجتمع البورجوازى إلى أفراد كل منهم مستقل عن الآخر وتضبط الحقوق علاقاتهم كما كانت الامتيازات تضبط علاقات الطوائف المهنية ، تم هذا بعمل واحد . فالإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع البورجوازى ، الإنسان غير

السياسى ، يبدو بالضرورة بوصفه إنسانا طبيعيا ، وتبدو حقوقه كما لو كانت حقوقا طبيعية . الآن نشاطه الواعى يتركز فى العمل السياسى . والإنسان الإنسانى هو النتيجة السلبية للمجتمع المنحل . والثورة السياسية تفكك الحياة البورجوازية إلى عناصر من غير أن تحدث الثورة في هذه العناصر نفسها وتخضعها للنقد ، فالثورة السياسية بالنسبة للمجتمع البورجوازى أى بالنسبة إلى عالم الحاجات والعمل والمنافع الخاصة والحق الخاص – تماما كما هى بالنسبة إلى أساس وجودها ، هى فرض ليس له إثبات ، وعلى ذلك تكون هذه النسبة كذلك كنسبتها إلى أساسها الطبيعى ، وأخيرا فالإنسان بوصفه عضوا فى المجتمع البورجوازى يعد إنسانا بمعنى الكلمة ، الإنسان بتعارضه مع المواطن ، لأن الإنسان بصفته تلك موجود وجودا مباشرا محسوسا وفرديا ، على حين أن الإنسان المواطن أو الإنسان السياسى ليس سوى الإنسان المجرد المصنوع بوصفه شخصا رمزيا معنويا . ولا يتم التعرف إلى الإنسان الحقيقى إلا فى شكل الفرد الأنانى ، بينما يتم التعرف إلى الإنسان الواقعى فى شكل المواطن المجرد .

ويصف « روسو » وصفا رائعا هذا التجديد للإنسان السياسى فيقول فى كتابه « العقد الاجتماعى » (الجزء الثانى) « إن الذى يجرؤ على البدء فى وضع شرائع لشعب من الشعوب عليه أن يحس

بإمكانية تغيير الطبيعة البشرية إن صح التعبير ، وتحويل الفرد ، الذى هو فى ذاته كل متكامل وفى نفس الوقت متضامن جزئياً مع كلٍ أكبر يتلقى منه هذا الفرد بمعنى من المعانى حياته ووجوده ، وإمكان إحلال الوجود الجزئى والمعنوى محل الوجود المادى المستقل . وعليه أنْ ينزع من الإنسان قواه الخاصة ليمنحه قوة غريبة عليه ، وقوى لا يستطيع استخدامها دون أن يعاونه الآخرون » .

إن كل تحرر ليس إلا رد العالم الإنسانى والعلاقات الإنسانية إلى الإنسان نفسه .

والتحرر السياسى هو تحويل الإنسان ، من ناحية إلى عضو من أعضاء المجتمع البورجوازى وفرد أنانى مستقل ، ومن ناحية أخرى إلى مواطن وشخص معنوى .

ولا يتحقق التحرر الإنسانى إلا حين ينصرف الإنسان عن أن يكون مواطنا مطلقا ويصبح عضوا فى مجتمعه ، كإنسان له شخصية فى حياته اليومية وعمله وموقفه ، وحين يتعرف إلى « قواه الحقيقية » وقوته الخاصة ، كجزء من قوى المجتمع ، التى لن تعد بعد ذلك معزولة عنه كقوة سياسية .



الجزء الثانى

قدرة اليهود والمسيحية على التحرر حاليا

يدرس « برونو باور » تحت هذا العنوان العلاقة بين الدينين المسيحى واليهودى ، وعلاقة الدين « بإمكانية أن يصير حرا » .

ويتوصل « باور » إلى هذه النتيجة : « ليس على المسيحى إلا أن يرتفع درجة ، إلا أن يتخطى دينه ، لكى يلغى الدين بصورة عامة (أى يصبح حرا) . أما اليهودى ، فعلى العكس ، عليه رغما عنه أن يتخلى عن جوهره اليهودى ، وليس ذلك فقط ، ولكن عليه أيضاً أن يتخلى عن تطوير دينه نحو الاكتمال ، وهو التطوير الذى ظل غريباً عليه » (ص ٧١) .

وإذن فباور يحول هنا مسألة التحرر إلى مسألة دينية صرفة ، ويتكرر السؤال اللاهوتى القديم الذى يتساءل أيهما أوفر حظا فى التوصل إلى الخلاص : اليهودى أم المسيحى ؟ يتكرر هنا بشكل جديد فيسأل . أيهما أكثر قدرة على التحرر ؟ ولم يعد السؤال هو : ما الذى يجعل الإنسان حرا ، اليهودية أم المسيحية ؟ بل صار السؤال عكس

ذلك : ما الذى يجعل الإنسان أكثر حرية : نفى اليهودية ، أم نفى المسيحية ؟

« إذا كان اليهود يريدون الحرية فعليهم أن يعتنقوا المسيحية ، المسيحية المتهاوية ، الدين المتهاوى عموماً ، أى يعتنقوا التنوير ، الروح النقدية وما ينتج عنها ، إنسانية حرة » (ص٧٠) .

فالمسألة إذن عند « باور » هى مسألة الإيمان بشئ من الأشياء ، وليست هى الإيمان بالمسيحية بالذات ، ولكنه الإيمان بالمسيحية فى مرحلة تهاويها ، أى بالفلسفة والنقد .

ويطالب « باور » اليهود بالانفصال عن جوهر المسيحية ، ولكن هذا الطلب لا ينبع ، كما يقول هو نفسه ، من تطور الطبيعة اليهودية . وما دام باور فى نهاية مناقشته للمسألة اليهودية ، لا يرى فى اليهودية إلا أنها نقد دينى للمسيحية ، فكان من المتوقع أن يحول مسألة التحرر إلى عمل فلسفى لاهوتى ، فباور يعد الطبيعة المثالية المطلقة لليهودى ، أى دينه بمثابة جوهره كله ، ومن ثم يخرج بحق بهذه النتيجة . « أن اليهودى لا يقدم للإنسانية شيئا عندما يتخلى عن قانونه الخاص المحدود ، أى عندما يلغى يهوديته » (ص ٦٥) .

وبذلك تتحول العلاقة بين اليهود والمسيحيين إلى هذه العلاقة : أن

تحرير اليهودى بالنسبة إلى المسيحى يشكل أهمية نظرية لها طابع إنسانى عام ، فاليهودى واقع يسوء فى عين المسيحى الدينية ، وحالما تنتهى عين المسيحى عن أن تكون عيناً دينية ، فإن هذا الواقع ينتهى عن أن يسئ إليه ، وإذن فتحرير اليهودى لا يمكن أن يكون المهمة التى تتناسب مع المسيحى » .

« وإذا كان اليهودى يريد أن يتحرر ، فعليه عكس ذلك أن يضطلع ، إلى جانب مايضطلع به هو شخصيا كيهودى ، بعمل المسيحى ، أى يقوم بنقد الأناجيل ونقد حياة المسيح الخ ...» .

« وعلى اليهود أن يتدبروا أمورهم ، فهم الذين يقررون مصيرهم ، لأن التاريخ لا يسمح بأن يُسخَر منه » (ص ٧١) .

أما نحن فنحاول تحطيم الصيغة اللاهوتية للمسألة ، عندما تتحول مسألة إمكان تحرير اليهود إلى مسألة أى عناصر المجتمع يجب التغلب عليه لكى تلغى اليهودية ، لأن قدرة اليهود على التحرر تعتمد على علاقة اليهود بتحرير العالم المستعبد كله .

ولننظر إلى اليهودى الذى يعيش الواقع المعاصر ، وليس إلى يهودى السبت كما فعل « باور » ، بل اليهودى الذى يعيش الحياة اليومية العادية .

ما هو الأساس الدنيوى لليهودى ؟ إنه الضرورة المادية ، المنفعة الشخصية .

ما هو هدف عبادة اليهودى فى هذا العالم ؟ إنه الربا . ماهو إلهه الدنيوى ؟ إنه المال .

حسن إذن ، إن التحرر من الربا والمال ، أى من اليهودية العملية الواقعية ، سيشكل تحرر عصرنا .

وتنظيم المجتمع بحيث يلغى الشروط السابقة لقيام الربا ، وبالتالى يلغى إمكانية الربا ، سيجعل وجود اليهودى مستحيلا ، وسيذوب الإيمان الدينى لليهودى تحت ضغط الحياة الحقيقية للمجتمع مثلما تتلاشى الروائح العفنة .

ومن ناحية أخرى ، لو أن اليهودى أقر بأن طبيعته المادية لا قيمة لها ، ولو أنه سعى إلى إلغائها ، فإنه سيكون من الساعين إلى تحرير الإنسانية تحريرا بسيطا ، ولكانت محاولته بمثابة الخروج عن الخط الذى سار عليه تطوره حتى ذلك الوقت ، نابذاً بهذه الطريقة أعلى تعبير عملى عن الاغتراب الإنسانى ، اغترابه عن نفسه .

وهكذا نتعرف فى اليهودية عموما على عنصر مناهض للمجتمع قد بلغ قوته الحالية من خلال تطور تاريخى أسهم فيه اليهود بشغف . إن

التحرر اليهودى يعنى فى النهاية تحرر الإنسانية من اليهودية .

إن اليهودى قد حررنفسه بطريقة يهودية : « إن اليهودى مثلا الذى يعيش فى فيينا فى بيئة متسامحة ، هو الذى يقرر بسلطته المالية مصير الإمبراطورية الألمانية كلها . واليهودى الذى بلا حقوق فى أصغر دولة ألمانية ، يقرر مصير أوروبا .

«وفى الوقت الذى تنغلق أبواب الطوائف المهنية أمام اليهودى ، أو لا تتعاطف معهم حتى الآن ، فإن جرأة الصناعة الخاصة تسخر من عناد مؤسسات القرون الوسطى » [1] .

وليس هذا حدثا منعزلا ، فاليهودى تحرر على الطريقة اليهودية ، ليس بأن أصبح سيد السوق المالية فحسب ، وإنما لأن المال أصبح عن طريقه (بفضله أو بدونه) قوة عالمية ، وأصبحت الروح العملية اليهودية هى الروح العملية للشعوب المسيحية . لقد حرر اليهود أنفسهم بنفس النسبة التى صار بها المسيحيون يهودا .

يقول الكولونيل هاملتون « إن سكان نيوإنجلند المتدينين ، والمتحررين سياسيا ، هم نوع من اللاوكون Laocoon [2] ، الذى لا

(١) باور : المسألة اليهودية ص ١٤ .

(٢) اللاوكون Laocoon ابن بريام وهيكيب ، كاهن معبد أبوللو فى طرواده ، خنقته مع أولاده حيّتان ضخمتان ، والأسطوره إغريقية .

يبذل أقل الجهد كي يحرر نفسه من الجهات التي تخنقه . إن صنم المال هو ربّ هؤلاء الناس : إنهم يعبدونه . لا بالشفاه فحسب ، ولكن بكل قوى جسومهم وروحهم . والدنيا في عيونهم ليست سوى بورصة ضخمة . وهم على إيمان بأنهم لم يُرسلوا إليها إلاّ لكي يكونوا أغنى من جيرانهم ، فالربا قد سيطر على كل أفكارهم ، والمتعة التي يستمدونها من الدنيا هي متعة تغيير ما يشغل هذه الأفكار ، وعندما يسافرون يحملون معهم مكاتبهم أو مخازنهم ، إن صح التعبير ، على ظهورهم ، ولا يتحدثون في شئ إلا الفوائد والأرباح ، فإذا حولوا أبصارهم للحظة بعيدا عن أعمالهم الخاصة ، فإنما ليدسوا أنوفهم في أعمال الناس الآخرين .

والحقيقة أن سيطرة اليهودي المادية على العالم المسيحي قد صارت في الولايات المتحدة مسألة مقبولة في الحياة اليومية لدرجة أن التبشير بالأناجيل والترويج لتعاليم المسيحية نفسها قد صارا موضوعا للتجارة، وتحولا إلى سلعة تجارية ، ويتكسب التاجر المفلس من الأناجيل مثلما يمتهن الواعظ الثري التجارة ، « ففلان من الناس الذي يرأس جماعة دينية محترمة قد يكون قد بدأ حياته تاجرا ، وفشلت تجارته فاتجه إلى الدين وصار من رجاله . وهذا الآخر بدأ حياته رجل دين ولكنه عندما ملك مبلغا من المال تحت تصرفه ، ترك

كرسى الوعظ إلى التجارة ، وتعد الوظيفة الدينية لدى عدد كبير من الناس مهنة صناعية حقيقية » [1] .

ويرى باور أنه ليس بصحيح أن نقول إن اليهودى محروم الحقوق السياسية ، فهو عمليا يملك قدرة هائلة ، ويمارس نفوذه السياسى كاملاً ، رغم أنه محروم من ممارسته تفصيلا .

والتناقض بين هذه القوة السياسية الواقعية ، وبين حقوق اليهود السياسية . هو التناقض العام بين السياسة وبين ما للمال من قوة ، فالسياسية من الناحية النظرية فوق اعتبارات المال ، ولكنها من الناحية العملية تخضع كلية لقوة المال .

لقد ثبتت اليهودية جنبا إلى جنب مع المسيحية ، ليست كناقد دينى للمسيحية فحسب ، أو كمحقق رسمى فى أصلها الدينى ، بل وكذلك لأن الروح العملية لليهودية استمرت قائمة فى المجتمع المسيحى وحققت فيه أعلى ما يمكن أن تبلغه من تطور .

واليهودى الذى سيُبقى نفسه فى موقف العضو الخاص الذى يتميز بموقف خاص فى المجتمع البورجوازى ، يصور بطريقة خاصة اليهودية فى المجتمع البورجوازى .

(١) بومون Beaumont P. 185.186

ولقد عاشت اليهودية ، ليس ضد التاريخ ، وإنما بالتاريخ ، وكان المجتمع البورجوازى ينجب اليهودى باستمرار من أعماق نفسه .

ما هو جوهر الديانة اليهودية ؟ .. هو المنفعة العملية ، الأنانية .

وإذن فالإله الواحد الذى يؤمن به اليهودى هو فى واقع الأمر عدد من الآلهة . إنه عدد من المنافع وإيمانه يجعل الشرك نفسه غاية من غايات القانون الإلهى . المنفعة العملية الأنانية هى أساس المجتمع البورجوازى ، وتظهر كأساس للمجتمع البورجوازى حالما يقيم هذا المجتمع دولته السياسية الخاصة به . وإله المنافع العملية والمنفعة الخاصة هو المال .

إن المال : هو إله إسرائيل الغيور ، وإلى جانبه لا ينبغى لأى إله أن يعيش .

والمال : يحط من شأن كل آلهة البشر ويحيلها إلى سلعة .

والمال : هو القيمة العامة ، والتى تكون فى ذاتها كل الأشياء ، وهو لهذا قد جرّد كل العالم من كل القيم : عالم الناس وعالم الطبيعة .

والمال : هو جوهر حياة الإنسان ، وهو عمله الذى اغترب عنه ، ويسيطر عليه كوحش يتهدده ، ويستعبده .

لقد صار إله اليهود إلهاً دنيويا ، وصار بالربا إلها علمانيا ، وأضحت المتاجرة الإله الحقيقى لليهود .

والفكرة التى يكونها الإنسان عن الطبيعة ، وهو واقع تحت سيطرة الملكية الخاصة ، لا يمكن أن تكون إلا الازدراء الحقيقى ، والحط المادى من شأن الطبيعة ، كما هو قائم فى الدين اليهودى ، حتى ولو كان بالتخيل .

وفى هذا المعنى يشكو توماس مونزر قائلا « إن كل الكائنات قد تحولت إلى أشياء يملكها الناس ، السمك فى الماء والطيور فى الهواء ، والنبات على سطح الأرض - إن الكائنات كذلك ينبغى أن تتحرر » .

وما يتقرر كنظرية فى الديانة اليهودية ، وهو الازدراء للتفكير النظرى وللفن والتاريخ ، والإنسان نفسه كغاية فى ذاته ، إنما هو فى الواقع وجهة نظر عملية لرجل المال يقرها عن وعى ، وحتى العلاقات بين الجنسين ، بين الرجل والمرأة ، تصبح موضوعا للتجارة ، وتستحيل المرأة إلى سلعة يتاجرون فيها .

وقانون اليهودى ، الذى يعوزه الأساس المتين ، ليس إلا صورة هزلية دينية للأخلاق وللقانون عموما ، ولكنه يزود دنيا الملكية بالطقوس الرسمية التى تلبسها لعمليتها التجارية .

إن اليسوعية [1] اليهودية – تلك اليسوعية العملية ، التى يقول عنها باور أنها تتناول في التلمود اليهودى استخدام عالم المنفعة الشخصية استخداماً خداعا للقوانين التي تحكم ذلك العالم – هذه اليسوعية اليهودية هى الفن الكبير الذى يبرع فيه عالم المنفعة الشخصية .

والواقع أن العمليات التجارية لهذا العالم داخل إطار قوانينه هى إلغاء مستمر بالضرورة لهذه القوانين ، لأن العالم لا يستطيع أن يتحرك داخل هذه القوانين دون أن يلغيها باستمرار .

ويطيع اليهودى قوانينه ،لا لأنها تعبر عن إرادته وجوهره ، ولكن لأن الإنسان اليهودى تسيطر عليه هذه القوانين ، وسيعاقب لو تجاوزها .

---

(١) اليسوعية هى جماعة يسوع (المسيح) أسسها القديس أجناس لويولا سنة ١٥٤٠ ، وكانت تستخدم الدين استخداما مخادعا ، وكانت تلقب رئيسها بالجنرال ، كما كانت تعادى إنشاء الجامعات في فرنسا ووقفت ضد النظام البرلماني . (الحفنى)

إن ديانة الضرورة العملية بوسعها بحكم طبيعتها ، أن تبلغ الكمال من خلال الممارسة وحدها ، لأن الممارسة هى حقيقتها .

إن اليهودية لا تستطيع أن تخلق عالما جديداً ، وهى لا تستطيع إلا أن تسحب ما يبدعه العالم من أشياء جديدة ومن علاقات إلى داخل مجال نشاطها ، لأن الحاجة العملية ، التى تحركها المنفعة الشخصية ، تعمل عملها بطريقة سلبية ، وهى حاجة لا تتوسع في مطالبها وفق مشيئتها ، وإنما تتوسع كلما كانت الظروف الاجتماعية ميسرة لهذا التوسع ، أى كلما كان المجتمع فى تطور .

إن اليهودية تبلغ ذروتها باكتمال المجتمع البورجوازى ، ولكن المجتمع البورجوازى لا يبلغ اكتماله إلا فى العالم المسيحى ، وتحت حكم المسيحية ، التى تستبعد كل العلاقات الإنسانية - القومية والطبيعية والأخلاقية والنظرية - يمكن للمجتمع البورجوازى أن يفصل نفسه تماماً عن حياة الدولة ، وأن يمزق كل هذه الروابط الاجتماعية التى تربط بين الناس بوصفهم جنسا بشريا ، وأن يستبدل بها الأنانية ومطالب المنفعة الشخصية ، وأن تذيب العالم الإنسانى فى عالم كله أفراد ذريون يعادى بعضهم بعضا .

إن المسيحية قد انبثقت عن اليهودية ، ولكنها الآن نكصت على عقبيها مرتّدة إلى اليهودية .

وكان المسيحى فى البداية يهفو إلى المثالية ، بينما كان اليهودى هو المسيحى العملى ، ولكن المسيحى وقد صار عمليا قد عاد من جديد فأصبح يهوديا .

ولم تنتصر المسيحية على اليهودية إلا فى الظاهر فقط ، لأن المسيحية كانت أكثر سموا ، وأكثر روحية ، من أن تستطيع أن تلغى وحشية الحاجات العملية ، إلا بتصعيد هذه الحاجات إلى عالم أثيرى وحشى .

والمسيحية هى الفكر السامى لليهودية .

واليهودية هى التطبيق العملى فى الحياة اليومية للمسيحية . ولكن هذا التطبيق لم يكن فى وسعه أن يكون تطبيقا عاما ، إلا عندما توصلت المسيحية ، نظرياً ، أن تكون الدين الكامل للإنسان المغترب عن نفسه وعن العالم .

وعندها فقط ، استطاعت اليهودية أن تتوصل إلى السيطرة سيطرة عامة ، وإلا طُرِد الإنسان والطبيعة خارج ذاتيهما ، بحيث جعلتهما - الإنسان والطبيعة - شيئا تجارياً ، يخضع إلى الحاجة الأنانية ، وإلى المتاجرة بالربا .

والتخلي عن جوهر الإنسان هو ممارسة للتخلي بشكل فعلي .

ومثلما أن الإنسان ، بسيطرة الدين عليه ، يحيل كل كائن موجود إلى كائن خرافي غريب عنه ، فكذلك لا يستطيع الإنسان ، بسيطرة الحاجة الأنانية عليه ، أن يؤكد ذاته ، ومن ثم فهو لا يستطيع وهو واقع تحت سيطرة الحاجة الأنانية إلا أن ينتج أغراضا عملية ، بأن يخضع ما ينتجه ، وكذلك نشاطه ، لسيطرة جوهر غريب هو المال .

وما يتحلى به المسيحي من أنانية روحية ، يستحيل بشكل حتمي ، في ظل الحياة العملية الكاملة ، إلى أنانية اليهودي الملهية ، وتحول الحاجة السماوية إلى حاجة دنيوية وتصبح الذاتية أنانية .

ونحن لا نفسر صلابة اليهودي . بدينه ولكننا نفسرها ، في الأصح بالأساس البشري لدينه . وهو الحاجة العملية الأنانية .

ولأن جوهر اليهودي يتحقق في المجتمع البورجوازي ، لا يستطيع المجتمع البورجوازي إقناع اليهودي بخيالية جوهره الديني (الذي ليس إلا المفهوم المثالي للضرورة العملية) .

ونحن من ثم لا نعثر على جوهر اليهودي المعاصر في التوراة والتلمود فحسب ، ولكننا كذلك نجده في المجتمع المعاصر . وهو جوهر ليس مجردا ، بل هو جوهر عملي مطلق في عمليته ، ثم هو كذلك

جوهر ليس بمثابة حدود اجتماعية تحد اليهودى ، وإنما هو بمثابة حدود يهودية تحد المجتمع .

وعندما ينجح المجتمع فى إلغاء الجوهر العملى لليهودية ، أى إلغاء المتاجرة بالربا وظروف قيامها ، عندئذ يصبح اليهودى مستحيلا ، ذلك لأن ضميره لم تعد هناك حاجة إليه ، لأن الأساس الذاتى لليهودية ، هو الحاجة العملية ، قد صار له شكل إنسانى ، لأن المنازعة بين الوجود الفردى المتعين للإنسان وبين وجوده الاجتماعى قد ألغيت .

ومن ثم فالتحرير الاجتماعى لليهودية هو تحرير للمجتمع من اليهودية

كارل ماركس سنة ١٨٨٤

انتهى كتاب « عالم بلا يهود »

فهرست الكتاب

❋ ❋ ❋

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

رقم الإيداع ٤١٥٣ لسنة ١٩٩٢

الترقيم الدولى

I.S.B.N

977 — 00 — 3318 — 9

طبع : آمون

العنوان: ٤ فيرور - متفرع من إسماعيل أباظه

تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

هذا الكتاب

إن اليهود مشكلة في الشرق الأوسط ، وكل كتب التاريخ ، وحتى التوراة نفسها ، والأناجيل الأربعة تحكي عنهم كمشكلة . والمشكلة أو المسألة اليهودية كتب فيها كثيرون ومنهم فرويد ، وسارتر ، وديورانت ، وبوبر ، وهتلر ، وفون شوينر ، وكروجر ، وجوبينو ، وتشمبرلين ، ولوثر ، وهرتزل ، وبن جوريون . وتصدى لهذه المشكلة باقتراحات لحلها كثيرون أيضا ، فهناك الحل الفارسي ، والحل الروماني ، والحل الإسلامي ، والحل المسيحي ، والحل اليهودي ، والحل الماركسي ، والحل السوفييتي .

وهذا الكتاب يلقي الضوء على كل ذلك ، ويقدم ترجمات عن نصوص في غاية الأهمية ، تزيدنا وعيا بما نحن عليه ، وبما ينبغي أن نتخذه من خطوات للتعامل مع هذه المشكلة أو المسألة ، وهذا الكتاب بمثابة دعوة للعرب والمسلمين جميعا أن يفكروا ، وأن يتذكروا دائما أنه على بعد بضعة كيلومترات منهم أينما كانوا ، جماعة من المرضى الذُهانيين ، يعيشون في بيمارستان اسمه إسرائيل، وقد جعلوا حدودهم كل منطقة الشرق الأوسط – كما يقول بن جوريون ، بل العالم بأسره . وحلْم إسرائيل أن تكون القدس عاصمة للعالم . وطريقها لتحقيق ذلك هو خلق « **اليهودي الجندي** » ، والكوجيتو الذي تقول به هو « **نحن نحارب وإذن فنحن موجودون** » .

د . عبد المنعم الـ

